القسم الثاني : قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام :

○ ظالم لنفسه . ○ ومقتصد . ○ وسابق بالخيرات بإذن الله .

وهؤلاء كلهم مستعدون لسير موقنون بالرجعى إلى الله ، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره(1).

فما زاد هذا المسافر ، وما طريقه ، وما مركبه ؟

قال العلامة ابن القيم : زاده العلم الموروث من خاتم الأنبياء ﷺ ولا زاد له سواه ، فمن لم يُحَصِّل هذا الزاد فلا يخرج من بيته وليقعد مع الخالفين . فرفقاء المتخلف البطالون كثر من أن يحصوا ، فله أسوة بهم ، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٩] فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم ببعض في العذاب ، فإن مصائب الدنيا إذا عمت صارت مسلاة ، وتأسى بعض المصابين ببعض ، كما قالت الخنساء(2) :

(1) إلى مهاجر إلى ربي [٥١] .

(2) هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، والخنساء لقب عليها لقبت به تشبيهاً لها بالبقرة الوحشية في جمال عينيها ، قتل أخواها صخر ومعاوية فحزنت عليهما خاصة على صخر فرثته بشعر كثير وهي من شواعر العرب المعترف لهم بالتقدم ؛ أجمع الشعراء ورواة الشعر القدماء على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها في الرثاء . أسلمت مع قومها من بني سليم وانبعثت مع المسلمين لفتح بلاد فارس فقتل أولادها الأربعة في وقعة القادسية [١٦هـ ٦٣٨م] فقالت لما بلغها خبر مقتلهم : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة » . راجع ترجمتها في : الإصابة [١٢/٢٢٥] . والأبيات في الديوان ص [٨٤، ٨٥] .

ولو لا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنهم بالتأسي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدوم بين المشركين في العذاب يوم القيامة .

وأما طريقه : فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فلا ينال بالمنى ، ولن يُدرك بالهوينا ، وإنما هو كما قيل :

فخض غمرات الموت واسم إلى العلا ... لكي تدرك العز الرفيع الدائم

فلا خير في نفس تخاف من الردى ... ولا همة تصبو إلى لوم لائم

ولا سبيل إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين :

أحدهما : ألّا يصبو في الحق إلى لوم لائم ، فإن اللوم يصيب الفارس فيصرعه عن فرسه ، ويجعله صريعاً في الأرض .

والثاني : أن تهون عليه نفسه في الله ؛ فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال ، فمتى خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلى الأرض ، ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر ، فمن صبر قليلاً صارت تلك الأهوال ريحاً رخاء في حقه تحمله بنفسها إلى مطلوبه ، فبينما هو يخاف منها ، إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه .

وأما مركبه : فصدق اللّجأ إلى الله والانقطاع إليه بكليته ، وتحقيق الافتقار إليه بكل وجه ، والضراعة إليه ، وصدق التوكل والاستعانة به ، والانطراح بين يديه انطراح المسلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء عنده ، فهو يتطلع إلى قيّمه ووليّه أن يجده ويلم شَعْثَه ، ويمده من فضله ويستره ، فهذا الذي يُرجى له أن يتولى الله هدايته ، وأن يكشف له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها(1).

(1) زاد المهاجر إلى ربه [١١٧:١١٩] .

وقال رحمة اللّٰه تعالى عليه : والهجرة إلى اللّٰه ورسوله فرض عين على كل أحد في كل وقت(1)، وأنه لا انفكاك لأحد من وجوبها ، وهى مطلوب اللّٰه ومراده من العباد .

إذ الهجرة هجرتان : هجرة بالجسم من بلد إلى بلد ، وهذه أحكامها معلوم ، الكلام فيها .

والهجرة الثانية : الهجرة بالقلب إلى اللّٰه ورسوله، وهذه الهجرة هى الهجرة الحقيقية وهى الأصل ، وهجرة الجسد تابعة لها.

والهجرة إلى اللّٰه تعالى ورسوله ﷺ تتضمن « من » و « إلى » فيهاجر بقلبه من محبة غير اللّٰه تعالى إلى محبته سبحانه، ومن عبودية غيره تعالى إلى عبوديته سبحانه ، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه، إلى خوف اللّٰه ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له ، إلى دعائه ، وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له .

وهذا بعينه معنى الفرار إليه ، قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من اللّٰه إليه .

---

(1) قال ابن القيم فى طريق الهجرتين [ص : ٧] فى الحديث عن أولياء اللّٰه : « وله فى كل وقت هجرتان : هجرة إلى اللّٰه بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار فى كل نفس إليه .

وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محاب اللّٰه ومرضاته ولا يقبل اللّٰه من أحد دينًا سواه وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها ، لا زاد للمعاد » اهـ .

وتحت « من » و « إلى » فى هذا سر عظيم من أسرار التوحيد . فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية ، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التى اتفقت عليها دعوة الرسل، صلوات اللّٰه وسلامه عليهم أجمعين .

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وثبات القَدَر ، وأن كل ما فى الكون من المكروه والمحذور الذى يفر منه العبد. فإنما أوجبته مشيئة اللّٰه وحده، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته . فإذا فر العبد إلى اللّٰه فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة اللّٰه وقدره فهو فى الحقيقة فار من اللّٰه إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ : « وأعوذ بك منك »(1) وقوله : « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك »(2) فإنه ليس فى الوجود شيء يفر منه ويستعاذ منه ، ويلتجأ منه ، إلا هو من اللّٰه خلقاً وإبداعاً .

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٢/٤٨٦] عن عائشة رضى اللّٰه عنها قالت : فقدت رسول اللّٰه ﷺ ليلة من الفراش فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد . وهما منصوبتان وهو يقول : « اللّهم ؛ أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك . لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

(2) جزء من حديث أخرجه البخارى [٦٣١٣] ، ومسلم [٥٧/٢٧١٠] واللفظ له عن البراء بن عازب رضى اللّٰه تعالى عنه أن رسول اللّٰه ﷺ أمر رجلاً ، إذا أخذ مضجعه من الليل أن يقول : « اللّهم ؛ أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبرسولك الذى أرسلت فإن مات مات على الفطرة » .

فالفار والمستعيذ : فار مما أوجده قدر اللّه ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه ، ففى الحقيقة هو هارب من اللّه إليه ، ومستعيذ بالله منه .

وتَصَوُّر هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية خوفاً ورجاء ومحبة ، فإنه إذا علم أن الذى يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة اللّه وقدرته وخلقه لم يبق فى قلبه خوف من غير خالقه وموجده ، فتضمن ذلك إفراد اللّه وحده بالخوف والحب والرجاء ، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة اللّه ولا قدرته ، لكان ذلك موجباً لخوفه منه ؛ مثل ما يفر من مخلوق آخر أقدر منه ، فإنه فى حال فراره من الأول خائف منه ؛ حذراً ألّا يكون الثانى يفيده منه ، بخلاف ما إذا كان الذى يفر إليه هو الذى قضى وقدر وشاء ما يفر منه ، فإنه لا يبقى فى القلب التفات إلى غيره .

فتفطن إلى هذا السر العجيب فى قوله : « أعوذ بك منك » و « لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك » فإن الناس قد ذكروا فى هذا أقوالاً وقل من تعرض منهم لهذه النكتة التى هى لب الكلام ومقصوده .

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من اللّه إليه ؛ وهو معنى الهجرة إلى اللّه تعالى ؟

ولهذا قال النبى ﷺ : « لمهاجر من هجر ما نهى اللّه عنه »[1] ولهذا يقرن اللّه سبحانه بين الإيمان والهجرة فى غير موضع لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٨٤٦] عن عبد اللّه بن عمرو رضى اللّه عنهما عن النبى ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى اللّه عنه » .

والمقصود : أن الهجرة إلى اللّه تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه ، وأصلها الحب والبغض ، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه ، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر .

وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه ، وقد بلى بهؤلاء الثلاث ، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه ، وداعى الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه فى كل وقت أن يهاجر إلى اللّه ، ولا ينفك فى هجرته إلى الممات .

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعى المحبة فى قلب العبد، فإن كان الداعى أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل . وإذا ضعف الداعى ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً، ولا يتحرك لها إرادة .

والذى يقضى منه العجب: أن المرء يوسع الكلام ويفرع المسائل فى الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . وفى الهجرة التى انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربما لا تتعلق به فى العمر أصلاً .

وأما هذه الهجرة التى هى واجبة على مدى الأنفاس ، فإنه لا يحصل فيها علماً ولا إرادة وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له. والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره . وهذا حال من غشيت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال .

إن الهجرة إلى رسول اللّه ﷺ علم لم يبق منه سوى اسمه ، ومنهج لم تترك بنيات الطريق سوى رسمه ، ومحجة سفت عليها السوافى فطمست رسومها ، وغارت عليها الأعادى فغورت مناهلها وعيونها، فسالكها غريب بين العباد ، فريد بين كل حى وناد، بعيد على قرب المكان، وحيد على كثرة الجيران ، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا ،

ظاعن إذا قطنوا ، منفرد في طريق طلبه ، لا يقر قراره حتى يظفر بأربه . فهو الكائن معهم بجسده ، البائن منهم بمقصده ، نامت في طلب الهدى أعينهم ، وما ليل مطيته بنائم . وقعدوا عن الهجرة النبوية ، وهو في طلبها مشمر نائم ، يعيبونه بمخالفة آرائهم ، ويزرون عليه إزرائه على جهالاتهم وأهوائهم ، قد رجموا فيه الظنون ، وأحدقوا فيه العيون ، وتربصوا به ريب المنون ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥٢] . ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١٢] .

نحن وإياكم نموت ، فما أفلح عند الحساب من ندما

والمقصود : أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد وطريقها على غير المعتاد بعيد .

بعيد على كسلان أو ذى ملالة أما على المشتاق فهو قريب

ولعمر الله ، ما هي إلا نور يتلألأ ، ولكن أنت ظلامه ، وبدر أضاء مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن أنت غيمه وقتامه ، ومنهل عذب صافي ، وأنت كدره . ومبتدأ لخير عظيم ، ولكن ليس عندك خبره .

فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدلالة عليها ، وحاسب ما بينك وبين الله ، هل أنت من الهاجرين لها ، أو المهاجرين إليها ؟

فحدُّ هذه الهجرة : سفر الفكر في كل مسألة من مسائل الإيمان ، ونازل من منازل القلوب ، وحادثة من حوادث الأحكام إلى معدن الهدى ، ومنبع النور المتلقى من فم الصادق المصدوق الذى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم] .

فكل مسألة طلعت عليها شمس رسالته ، وإلا فاقذف بها في بحر الظلمات ، وكل شاهد عدله هذا المزكى وإلا فعده من أهل الريب والتهمات ، فهذا حد هذه الهجرة .

فما للمقيم في مدينة طبعه وعوائده ، القاطن في دار مرباه ومولده ، القائل : إنَّا على طريقة آبائنا سالكون ، وإنَّا بحبلهم مستمسكون ، وإنَّا على آثارهم مقتدون وما لهذه الهجرة ؟ التى كلَّت عليهم ، واستند في طريقة نجاحه وفلاحه إليهم ، معتذراً بأن رأيهم خير من رأيه لنفسه ، وأن ظنونهم وآراءهم أوثق من ظنه وحدسه .

ولو فتشت عن مصدر مقصود هذه لكلمة لوجدتها صادرة عن الإخلاد إلى أرض البطالة ، متولدة بين الكسل وزوجه الملالة .

والمقصود : أن هذه الهجرة فرض على كل مسلم ، وهي مقتضى « شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ » ، كما أن الهجرة الأولى مقتضى « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وعن هاتين الهجرتين يسأل كل عبد يوم القيامة ، وفي البرزخ ، ويطالب بها في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار .

قال قتادة : « كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ »[(١)] .

(١) الأثر عن قتادة أورده ابن القيم أيضاً في إغاثة اللهفان [١/٩٦] . من قول قتادة أيضاً . وأورده أيضاً في مدارج السالكين [١/٣٤١] من قول أبي العالية وهو عند ابن جرير بنحوه ، كما في تفسير ابن كثير [٢/٥٢٩] من طريق الربيع عن أبي العالية في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٩٢] قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ؟ وعماذا أجابوا المرسلين ؟ .

قال ابن القيم في زاد المعاد [١/٣٤] : « فجواب الأولى : بتحقيق « لا إله إلا الله » معرفة وإقراراً وعملاً ، وجواب الثانية بتحقيق « أن محمداً رسول الله » معرفة ، وإقراراً وانقياداً وطاعة » اهـ .

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادة(1) .

وشيخنا الإمام الأمين « محمد متولى الشعراوى » رضى اللّه تعالى عنه وأرضاه وبعد أن عايشنا معه فى الجزء الأول من السيرة النبوية العطرة ارهاصات الميلاد والبعثة وبدء الدعوة وكذلك لحظات الإسراء والمعراج وكأننا نعاينها ، تواصل مع فضيلته رحلة العطاء فى الجزء الثانى من منظومة السيرة النبوية ونعيش لحظات الهجرة فقد أفاض رضى اللّه تعالى عنه فى هذا الجزء النافع إن شاء اللّه تعالى فى الهجرة النبوية الشريفة المباركة ؛ وكذلك فى الحض على الهجرة إلى اللّه ورسوله بالتزام القرآن والسنة واتباع هدى السلف الصالح فى الاجتهاد والفهم ، لذا كانت كلماته تخرج من القلب لتدخل القلوب .

وهذا الكتاب تم جمع مادته من كلام فضيلة الشيخ الإمام وأحاديثه ، وكثير منه تم تسجيله مباشرة مع سماحته ، وقام مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة بشرحه والتعليق عليه وتخريج أحاديثه وترتيب موضوعاته .

وقد تم عرض الكتاب فى صورته النهائية على سماحته يوم الجمعة السابع من ذى القعدة ١٤١٨هـ الموافق التاسع من مارس ١٩٩٨م وتفضل سماحته بكتابة كلمة موجزة صدرنا بها طبعتنا هذه .

نسأل اللّه الكريم رب العرش العظيم أن يبارك لنا فى عمره وأن ينفعنا بعلمه ، ويجزيه عنا خير الجزاء، إنه سبحانه قريب سميع مجيب الدعوات ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

١٠ ذو القعدة ١٤١٨هـ

٩ مارس ١٩٩٨م

عبد اللّه حجاج

(1) زاد المهاجر إلى ربه [٤١:٥٥] .

ذكّرينا يا هجرة الحقّ ما قال … وكيف استهلّ خطو السّفار

واملئى الناس عـزّة وطموحاً … وأرينا روائع الآثار

إنما أنت عبرة ونأس … صيّروها ضرباً من الأخبار

أيقظى الشرق من سبات عميق … واحمليه إلى مدار الـدرار

فيه من محكم الكتاب ملاذٌ … فاقدحى يا رؤوسُ فالزندُ وار

علّميه الفداء حزماً وعزماً … فجنى النحل من أذى المشتار

علّميه أن الحياة صراع … من سها فيه ذل فى المضمار

علميه أن القوىّ ظلوم … كم يهادى كبارهم بالصغار

فقوى على الضّلال مقيم … وقطيع من الضعاف يجارى

أيها المسلمونَ فى أم الأرض … أيرضى الإسلام ما هو جار ؟

كيف باللّه تستقرُّ نفوسٌ … والأشقاء بيننا فى اشتجار

أنقول الإسلامُ ظلماً وجوراً … وفلسطين لم تعد من ديار

« إننا عائدون » تصرخ فينا … صرخةٌ تستغيث معنى الشّعار

دولةُ العلم والسياسات والحربِ .. ودُنيا الهوى والاستعمار

كلُّ دنيا تُبنى على غير دينٍ … فبناءٌ على شفير هار(*)

(*) من قصيدة موكب النور للشيخ الإمام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الهجرة النبوية .. دروس وعبر

أحمَدُك ربّى عَلَى ما أكملت لَنَا من دينٍ ، وأتممت علينا من نعمة ، ورضيت لنا من إسلام وأُصلى وأسلم على خير خلقك محمد رحمتك للعالمين .

وبعد :

فما أحسن أن نحيي مناسبات الإسلام الضخمة ، ولكن الأحسن من هذا ألّا نحيي المناسبة فقط فى فترة من نهار أو فترة من ليل ولكن الأحسن أن نحيا نحن هذه المناسبة .

نحياها فى كل ما آتت من ثمار . نحياها أسوة ونحياها قدوة ، ونحياها عبرة لا تغيب .

ولكن المسلمين الآن اكتفوا للإسلام بأن يحيوا مناسباته ، وكأن الإسلام فى حاجة إلى أن يعيش بهم ، والناس ليسوا فى حاجة إلى أن يعيشوا بالإسلام!!

ما أغنى الإسلام فى أن يحيا بنا ، ولكن ما أحوجنا نحن إلى أن نحيا بالإسلام ؟

نحن فى العالم الإسلامى نحسن استقبال المناسبة ، ولكننا لا نحسن معايشة المناسبة .

ولكنا نقول : حسبنا الآن أن نعيش الإسلام كما قلت تحقيقًا إلى أن ييسر لنا اللّه أن نعيشه تطبيقًا .

وإذا كانت الهجرة حدثًا ضخمًا من أحداث الإسلام ؛ فيجب أن نَلْحظ أن تاريخها لم يبدأ حيث بدأت حدثًا ، ولكنها نشأت مع البعثة نفسها لأن

رسول اللّه ﷺ حينما ذهبت به زوجه خديجة رضى اللّه تعالى عنها إلى ورقة نقصّ عليه ما يراه من خبر الوحى .

قال له : لتقاتلن ولتخرجن .

قال : « أو مخرجى هم ؟ » .

قال : ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مظفرًا .

فكأن الرسول ﷺ قد استقبل خبر الهجرة فى الوقت الذى استقبل فيه تصديق أنه مبعوث .

إذن .. فالهجرة نشأت مع البعثة . وكأن هذا القرن أراد به الحق سبحانه وتعالى أن يعلمنا أن البعثة بدأت إطلاق دعوة فى مكة فى أذن سادات الجزيرة ولكنها انطلقت من المدينة ، فكان ولا بد أن يلتقى الإطلاق بالانطلاق .

وإذا ما نظرنا إلى الحدث فى ذاته ؛ وجدنا أن كل حدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان، ولذلك نقول : كل حَدَثٍ له ظرف ، والظرف : إما مكانى وإما زمانى، والظرف المكانى ظرف كما يقولون : ظرف قار ، أى ثابت لا يتغير . ولكن الظرف الزمانى : ظرف متغير ، فيكون مستقبلاً، ثم يكون حالاً، ثم يكون ماضيًا .

حين يُرَادُ التاريخ ؛ إنما يراد بالتاريخ ربط الأحداث بأزمانها .

ثم يأتى المكان بعد ذلك ظرفًا تابعًا للزمان . ولذلك كان التاريخ دائمًا بالأحداث التى تنشأ فى الزمن ، لا بالمكان الذى ينشأ فيه الحَدَث .

وقديمًا عُرِفَ التاريخ بالأحداث والمناسبات . فكانوا يؤرخون بسَيْل العرم ، وكانوا يؤرخون بعام الفيل .

ولكن حَدَث الهجرة . ذلك الحدث الضخم . أُرِّخ به ، ولم يُؤَرَّخ بعام البعثة ؛ لأن الهجرة إنما كانت كما قلنا انطلاقاً للدعوة ؛ لأنها أصبحت من دار إيمان لا من دار أمن فقط .

والتاريخ حين نُريد أن نبدأه لا بد أن يربط بفلك ثابت مستقر . فيجب أن نعلم إننا حين نستقبل « المُحَرّم » لا نستقبل اليوم الذى حدثت فيه الهجرة ؛ لأن الهجرة حدثت فى أواخر « صفر » وأوائل « ربيع » .

فإذا كان ولا بد أن نؤرخ للحدث كان من الواجب أن نؤرخ الاحتفاء بحدث الهجرة كحدث إلى آخر « صفر » وأول « ربيع » . ولكن آخر « صفر » وأول « ربيع » لا يناسب أن يكون بداية تاريخ ؛ لأنه غير مرتبط بأمر فلكى ثابت . فكان ولا بد أن يربط التاريخ بأمر فلكى ثابت مُستقِرّ .

والأمر الفلكى الثابت المستقر فى عُرْف الإسلام ، وفى عرف ما شرعه القرآن إنما هو التاريخ بالشيء الذى له علامة تميزه فلكيًا وهو ظهور الهلال ؛ لأنك لا تستطيع أن تعرف الشهر بالشمس ، ولكن الشمس جاءت لتؤرخ لك الليل من النّهار ، ولكن الهلال جاء ليؤرخ لك الشهر من الشهر ، ولذلك أنت لا تستطيع أن تحكم على الشهر بالشمس أبدًا ، وإنما تحكم على اليوم فقط بالشمس .

فحين تريد تاريخًا شهريًا لا تجد أمرًا فلكيًا له علامة فلكية لا يُجَادَلُ فيها إلا أن يوجد هلال .

إذن .. فربط التاريخ بالهجرة ، والهجرة بالتاريخ القرآنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِـدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ... ﴾ [التوبة : ٣٦] أولها المحرم ، رُبط به لأن لها بداية ، وهى الهلال فى أول « المُحَرّم » فيعلم للجميع أن ذلك هو بداية الشهر .

فحين أرادوا أن يؤرخوا للهجرة . كحدث ضخم من أحداث الإسلام . لم يؤرخوا للحظة التى حدث فيها الحدث وإنما أرخوا بالعام الذى حدث فيه الحدث ليظل العام عامًا يبتدئ من المحرم وينتهى بذى الحجة . وتظل العلامة المميزة لابتداء الشهر وهو الهلال .

فنقول نحن : فى العام الهجري، أي: في العام الذى حدثت الهجرة فيه، أي : فى العام . فالعام الأول : بدأ أيضًا بالمحرم وبدأ بصفر وبعد ذلك جاء حدث الهجرة فى آخر صفر وفى أول ربيع، فنحن حين نحتفي ، نحتفى بعام هجرى حدثت فيه حادثة الهجرة . حدثت فى أوله فى آخره . هذا أمر لا يعنينا وإنما يؤرخ بالعام الذى حدثت في الهجرة، ليظل أمر التاريخ أمرًا مرتبطًا بشيء فلكى مميز لا يمكن أن يشاركه فيه غيره .

وإذا ما نظرنا إلى حدث الهجرة نجد أن الاسم لها الهجرة ، ولكن كل فعل تعرض لها كحدث « هاجر » ولم يقل : « هجر » وكان من المنطق أن نأخذ « الهجرة » و « هجر » من مادة واحدة صحيح هما من مادة واحدة . ولكن « هاجر » غير « هجر » .

فلماذا اختير الاسم من الثلاثى ثم جيء فى الفعل بفاعل التى هى « هاجر » الرباعى ؟ وسُمُّوا مُهَاجرين ولم يُسَمُّوا هاجرين ؟ ما هى الحكمة ؟ لأن هناك فى « هاجر » الشائع فيها فى استعمال اللغة أنها تأتى من طرفين ، كما تقول مثلاً : قاتل .. قاتل زيدٌ عمرًا . قلنا : إن مادة « المفاعلة » لا بد فيها من طرفين متقابلين . يشاركان : لا يقال : « شارك زيد » وسكت ، لا بد أن نقول : شارك زيد مَنْ ؟ لا نقول : قاتل زيد – نقول : قاتل زيدٌ مَنْ ، نقول : قاتل زيدٌ عمرًا وقاتل عمرو زيدًا أى : مفاعلة تأتى من الجهتين . وقلنا : إن المفاعلة لا بد أن يكون فيها طرفان ؛ كل منهما : فاعل ومفعولٌ فى نفس

الوقت . ولكن في اللفظ يرجح جانب الفاعلية في جانب ، وجانب المفعولية في جانب فيقال: « شارك زيدٌ عمرًا » . التحليل : أي: وشارك عمرٌ زيدًا . فغلبنا الفاعلية في الأول والمفعولية في الثاني .

ففي « هاجر » الحدث في ذاته كانت هناك مفاعلة .. ممن ؟ لأن الرسول ﷺ لم يتجنَّ على مكة فيهجر مكة ؛ لأن « هجر » سبب من جهته هو أي : لم يحب أن يعيش فيها .

فيقال : هجرها . هجرت كذ . ولكن حين يقال : « هاجر » ؛ فكأن من في المكان كان لهم مَدْخَلٌ في الهاجرة ؛ لأنهم لو لم يؤذوه ويؤذوا أصحابه ويضطهدوا المؤمنين الضعفاء السابقين ويضطروهم إلى أن يذهبوا إلى أماكن شتى ليحموا أنفسهم من بطشهم ما هاجروا إلى المدينة .

إذن .. فالذي ألجأهم أن يهجروا المكان ، لا مجرد بُغض للمكان أبدًا !! وإنما لأن من في المكان اضطرهم أن يهاجروا .

إذن .. فالمسألة مفاعلة ممن « هجر » وممن اضطرهم إلى أن يهاجروا . ولكن اسم الهجرة كحدث صار اسمًا ضخمًا فأخذ من الثلاثي ، ولكن الفعل ظل مأخوذًا من المفاعلة وهو من « هاجر » ليشير إلى المناسبة .

والشعراء التفتوا قديماً إلى هذا المعنى ؛ فيقول المتنبي مثلاً :

إذا تَرَحّلت عن قوم وقد قَدَرُوا   أن لا تفارقهم فالرّاحلون همُ

أي : إذا أَلْجَأَك قوم أن ترحل وهم يقدرون ألّا ترحل فلا تكون أنت الراحل، وإنما هم الذين رحلوا .

فكأن رسول الله ﷺ لم يهجر « مكة » ؛ لأنها كانت أحبَّ البلاد إليه ، ولكنه هاجر، ومعنى « هاجر » أن من في مكة ممن لم يقبلوا دعوة الإسلام اضطروه بالإيذاء له ولأصحابه وباضطهادهم إلى أن يهاجروا .

إذن .. فالمفاعلة قائمة على أصولها ، والذين فعلوا معه ذلك يعتبرون هم الذين هاجروا ؛ لأنهم كما قال المتنبي :

إذا تَرَحّلت عن قوم وقد قَدَرُوا   أن لا تفارقهم فالرّاحلون همُ

ولذلك كان جزاؤه ﷺ كما جاء في السير : « اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليّ ، فأسْكِنِّي أحبَّ البلاد إليك » .

إذن : فيجب أن نفهم من هنا أن المدينة أحب بلاد الله إلى الله ، وأن مكة أحب البلاد إلى رسول الله ﷺ

انظروا إلى الفارق بين محبوب الله ، وبين محبوب رسول الله ﷺ ، الرسول ﷺ يعطينا بحدث الهجرة درسًا يجب أن نتأسى به في كل تصرفات أحداثنا الضخمة التي نحاول بها أن نؤثر في مجرى الحركة للحياة ؛ لأن الذي يجئ ليغير مجرى حركة حياةٍ ألفها الناس وعاشوها لا بد أن يتعرض إلى كثير من المتاعب لأنه سيخرج الناس عما ألفوه ، وينزعهم مما اعتادوه ، وذلك أمر شاق على النفوس وخاصة إذا كان النقل أمرًا غير مساو ، بل النقل من أمر تنطلق فيه حرية الحركة للأفراد يفعلون ما يشاءون ويتركون ما يشاءون وينتقلون الآن إلى دائرة ، هذه الدائرة تتحكم في أمورهم . فنقول لهم : افعل كذا ولا تفعل كذا .

إذن .. فالذي يغير مجرى حياة إلى مناقض لها لا بد أن يتعب ، لا بد أن ينصب ، ولكن التعب والنصب لا يمنعانه من أن يأخذ بالأسباب في مظانها وفي أماكنها .

ورسول الله ﷺ آمن أولاً بأنه رسول الله ، لأنه يشهد هو كما نشهد له نحن - فيقول : أشهد أن محمدًا ﷺ رسول الله . فلا بد كما شهد الله لنفسه : أنه لا إله إلا هو ؛ كذلك يشهد محمدًا أنه رسول الله . وإلا فلو لم

يقتنع تمامًا بأنه رسول الله لاهتز من أول حدث ، ولكن الذى يجعله يقف أمام الأحداث أنه يعلم أنه يستند إلى ركنٍ رشيد شديد هو اللّٰه ، وأن كل ما يحدث له إنما هو أمر ابتلاء حتى يتحمل الدعوة الجديدة قوم لهم جلد .. قوم لهم صبر .. قوم لهم دربة على تلقى المصاعب وتحدى كل العقبات .

كان من الممكن أن ينصر اللّٰه الإسلام فى مكة، ولكن اللّٰه سبحانه لم يشأ ألّا يحمِلَ الإسلام قومًا رأوا فى الإسلام عِوضًا عن أهلهم ، وعوضًا عن أولادهم ، وعوضًا عن أموالهم ، ما داموا وجدوا مددًا فهم يتحملون تعب الدعوة ، واللّٰه قد أعد الجزيرة من قديم لتحمل رسلة الإسلام ، وكان من إعداده لها أنها أمة أمية .

فلربما قائل يقول : كيف تعد أمة أمية ؟

نعم ؛ لأن اللّٰه لا يريد انطلاقة تنشأ حضارية من أمة متحضرة ؛ لأنه ربما قيل : إن الدعوة نضجت لحضارة كان ولا بد أن وجد .

فلم يشأ اللّٰه أن يكون الإسلام فى فارس ولم يشأ اللّٰه أن يكون الإسلام فى الروم ؛ لأنها دول ذات حضارات ، ودول ذات ارتقاءات فربما قال : قفزة حضارية يريد اللّٰه أن يجيء بنبى أمى فى أمة أمية ؛ ليعلم الناس جميعًا أن ما عندهم ليس للبشر دخل فيه ، وأنه من عند اللّٰه وحده .

إذن .. فيجب أن تعلم أن الذين يحاولون أن يتكلموا عن أمية محمد ﷺ ويقولون : يجب أن تمحى هذه الكلمة من الأمة الأمية ومن النبى الأمى ؛ لأن ذلك سُبّة ؟

نقول لهم : افطنوا يا قوم .. إن اللّٰه يريد إن يقول لكم أن محمدًا وقوم محمد لم يأخذوا من حضارة الدنيا شيئًا ليسودوا به الدنيا وإنما جاء كل

منهجهم من السماء فلا دخل لأحدٍ فيه . لا بالنسبة للرسول الذى أنزل عليه ولا بالنسبة للقوم الذين أنزل عليهم .

الرسول ﷺ صار فى أسباب الدعوة ، وعرض نفسه على القبائل .

والرسول ﷺ قبل الهجرة كان محميا فى الخارج بعمه أبى طالب ، فكان الكفار المعاندون المعارضون للدعوة يحترمون بقاء أبى طالب معهم على دياتنهم ولا يشتدون فى إيذائه ﷺ .

وكأن عدم إيمان أبى طالب كان كترضية لهؤلاء فى ألّا يؤذوا محمدًا إيذاءً كبيرًا ، لأنهم يحترمون بقاء عمه أبى طالب فى حضانة دينهم فاحترامًا لهذا ربما كان ذلك .

ولكن لو آمن أبو طالب ، أو أعلن إيمانه ؛ لأصبحت المهاجرة أمرًا عاديًا وربما كان لهم فعل كبير فى الإسلام !!

إذن .. فيجب أن نفهم أن اللّٰه سبحانه وتعالى قد ينصر الإيمان بالكفر ، نُصر إيمان محمد وحمايته بكفر أبى طالب .

يجب أن نفطن إلى هذا .. لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يثبت أمرًا يأتى بالنصير للأمر من خصوم ذلك الأمر . وذلك هو معنى قوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ .

أبو طالب كان حاميًا للنبى ﷺ على طريقة الحماية السّببية وإن كان محمد عليه الصلاة والسلام يَعْلَمُ أن الذى أرسله لن يخذله .

لا يمكن أن يخذل . ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يطمئنه اطمئنان السببية فى أن يجد شيئًا ماديًا هو عمه ، وله مكانته وله مهابته فى القبائل .

وإذا نظرنا لا نجد أيضًا أن المتاعب فقط لصاحب الدعوة تكون فى خارج أمره ولكنها تكون له أيضًا فى داخله . فقد حدثنا القرآن أن امرأة نبى وامرأة

رسول كانت تخونهما في أمر لدعوة . ولكن كانت خديجة لرسول الله ﷺ سكنًا بمعنى الكلمة فإن أُهيجَ في الخارج سَكَّنَتْهُ في الداخل ، وإن حصلت له مشقات عنف قابلته بحنان عطف . كل ذلك كان يدلنا على أن رسول الله كان مطمئنًا إلى الخارج بأبي طالب وإلى الداخل بخديجة .

وبعد ذلك يفاجأ رسول الله ﷺ بأن أبا طالب يموت، وخديجة تموت في عام واحد .

إذن .. قد انهدم السكنان فلم يجد رسول الله ﷺ ، بُدًا أن يذهب ليأتي بالنصر ، يعرض نفسه على الطائف، على قبيلة ثقيف ربما آمنت . ربما حمته . ولكن استقبلت . كما تعرفون من التاريخ . وقد تكرر ذلك طويلاً لدرجة أنه أصبح من البديهات من الإسلام .

ولكن عز عليه النصير في الطائف ، وقد ذهب هو إليه فيعلمنا الله أول درس بالهجرة أن أخذك بالأسباب لا بد أن يكون سابقًا على اتكالك على المُسَبِّب .

إن الأسباب مخلوقة للّه ، ويد الله ممدودة بالأسباب فلا تَرُدّ يد الله بأسبابه ثم تقول : يارب افعل لي ؛ لأنه يقول لك : أنا أعطيت لك بالأسباب في الأرض فلم لا تتناول هذه الأسباب ، أنا أجيب دعوة المضطر .

معنى المضطر : هو الذي استنفذ الأسباب . فرسول الله ﷺ استنفذ كل أسباب الاستنصار لدينه. ولكنه لم يجد، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يقول له : إنك قد ذهبت للنصير وتعبت في الوصول إليه فلم تجده ، فأخذت الأسباب فليكن نصر المُسَبِّب بأن يأتيك أنت النصير وأنت في مكانك وفعلاً جاء الأنصار وذهبوا إلى رسول الله ﷺ في العقبة وبايعوه قلة ثم أكثر من القلة ثم كثير فكانوا الخميرة الإيمانية في المدينة التي تبشر بمحمد ﷺ .

إذن .. فرسول الله ، ذهب إلى الأسباب فلم تواته الأشياء ، وجاءته الأسباب إلى مكانه : معنى هذا أن ذلك الدرس يجب أن يتعلمه المسلمون جميعًا .

أن يصنعوا الأسباب ولكن لا يفتنوا بهذه الأسباب ؛ لأن وراء الأسباب مسببًا إن خذلتهم الأسباب فالمسبب لا يمكن أن يخذلهم أبدًا .

هنا أيضًا يجب أن نلحظ أن الله سبحانه وتعالى يعطينا في الهجرة لفتات ، هذه اللفتات – هي سببية الحدث . وسببية الحدث ليس معناها أن تقبل على السبب بدون دراسة وبدون تخطيط لا .. إن رسول الله حينما أوذي أتباعه ، ولم يجدوا لهم نصيرًا ، وخافوا الفتنة في دينهم نظر رسول الله كنانة العالم أمامه وبسط خريطة الدنيا وقال : إلى أي مكان آمرهم أن يذهبوا ؟ إن ذهبوا إلى أية بقعة من الجزيرة، فالجزيرة خاضعة لسادات قريش ؛ لأن قريشًا هي سادة العرب، وكل العرب تهابهم، وتحترم قوافلهم وتجارتهم ؛ لمكانهم من البيت إذن .. فأي مكان يذهبوا إليه في الجزيرة سيجدوا من يتطوع ، أو من يتقدم ليجامل قريشًا بأن يمكن لهم من هؤلاء المهاجرين .

ثم استعرض خارج الجزيرة فوجد « فارس » ووجد « الروم » وهؤلاء هم أهل كتاب ، ولكن استعرض معهم بلدًا . لا يكفي أن يكون البلد خاضعًا لكتاب في الروم ، ولا يكفي أن يكونوا مؤمنين برسول بل يذهبوا إلى السلطة الزّمنية التي تُعايش الروم ، السلطة الزمنية قد تكون تابعة لكتاب ولكن ظالمة . لا تنفذ تعاليم هذا الكتاب .

« فارس » مبعدة ؛ لأنها وثنية . إذن .. بقيت الروم . فاستعرض هذه البلاد فرأى أعدل حكام هذه البلاد بدليل أنه قال : « اذهبوا إلى الحبشة فإن هناك ملكًا لا يُظلم عنده أحد » .

كان ذلك إيذانًا من رسول الله ﷺ حين قال : « لا يُظْلم عنده أحد » إلى أن قريشًا لن تترك أصحابه فى الحبشة ، وستذهب بالألطاف والهدايا وترشو الحاكمين والمسلطين والممكنين فيها ليسلموا لهم هؤلاء الذين فروا بدينهم . لكن رسول الله ﷺ ، قال : « إن هناك ملكًا لا يظلم عنده أحد » . هذا هو بسط الخريطة .

إذن .. فبسط الخريطة ليعرف المكان المناسب ليس مجرد فرار ، ولكنه فرار إلى أمن ، ولذلك سميت الهجرة قبل هذه الهجرة بـ « هجرة إلى دار أمن » أما الهجرة التى أرخت بها فهى « الهجرة إلى دار إيمان » .

والفرق بين الهجرتين : أن هذه الهجرة إلى أمن، وهذه هجرة إلى دار إيمان.

ننظر نظرة أخرى نجد أن رسول الله ﷺ علمنا حين نخطط للأشياء أن نخطط لكل جهاتها ولكل مجالاتها .

فقد خطط لآلة السفر « الرواحل » .

وخطط لزاد السفر .

وخطط من يهدى إلى الطريق .

كل شيء صُنع بحساب دقيق .

لعل قائلاً يقول : إن رسول الله ﷺ كان بأى سبب سينتصر ؟ لأن الله أرسله ولن يخذله ؟! ولكنه يعلمنا نحن الذين لا ينزل علينا وحى حين نقبل على أمر من الأمور يجب أن نخطط له . وانظروا إلى مكر الله بالكافرين ، بالله استعرضوا الأمر وقولوا لى : بأى عقلية وبأى عقيدة جاء الرجل الذى اسمه: ابن أريقط ليهدى محمدًا إلى الطريق إلى المدينة وهو كافر على دين قومه ، أما أغراه الجعل الذى جعلته قريش لمن يدل على محمد ؟ مع أنه كافر ، لو كان مؤمنًا لقلنا : إن حرارته لحفظ نبى الدعوة هى التى جعلته يدلهم ،

ولكنه كافر ، ومع ذلك استخدمه رسول الله ﷺ ليكون هاديًا إلى الطريق ، وكان من الممكن مادام هاديًا إلى الطريق أن يضللهم فى الشعاب ليذهبوا إلى حيث خرجوا ، ولكن رسول الله ﷺ بإشراقات النبوة وإلهامات الوحى أمن ذلك الرجل .

لا بد أنه قرأ شيئًا فى إشعاعات عينيه .

لا بد أنه قرأ شيئًا فى مواجيده ، ووجد : أن هذا لا يمكن أن يبيحنا إلى قريش مع أنه كافر !!

فإذا ما علمت قريش أن الذى هدى محمدًا إلى الطريق كافر ، كان ولا بد أن يفهموا أن هذا الدين لن يسلم إليهم أبدًا .

أيضًا : نجد أن رسول الله ﷺ هاجر خفية ، ولكنها خِفْيةٌ أشق على نفوس الكافرين من العلن ؛ لأنه هاجر خفية وهم متربصون ، وهم محيطون به ، فكيف يخرج من بينهم ؟ تلك نكاية أخرى ، لو لم يكونوا محيطين به ، لقالوا : لو أحطنا به لما أفلت منا ؟!

لا .. أحيطوا به وتَيَقَّظت !!

وبعد ذلك ننظر نظرة أخرى : وهو أن رسول الله ﷺ ليس أقل شجاعة من عمر ؛ فإن عمرًا هاجر جهرة ، متحديًا وقال « من أراد أن يثكل أمه ، أو يرمل زوجته أو ييتم ولده ، فليلقنى وراء هذا الوادى » .

أكان محمدٌ أقل شجاعة من عمر ؟ !

لا .. إن محمدًا ﷺ كان دائمًا أسوة للضعيف ، أما القوى فلا يحتاج لأسوة !

ربما عز على واحد أن يقول أنا أهاجر خفية لا .. محمد هاجر خفية .

إذن .. هاجر بأى وسيلة استطعت .

فيخاف أبو بكر أن يكون أمامهم رَصَدٌ يَتَرَصَّدُ لرسول الله ﷺ. فيمشى أمامه ليتأكد أن ليس أمامه رصد .

وهو لا يمشى إلا فى المنحنيات غير المتضحة . فيمشى خلفه الرسول ﷺ فيخاف أبو بكر عليه ؛ أن يأتيه من أمامه من قبيل يترصد له .

ومرة يخاف عليه ممن يطلبه من ورائه ؛ فيمشى خلفه إذا ذكر الرصد ؛ صار أمام رسول ﷺ . وإذا الطلب ؛ صار خلف رسول الله ﷺ .

وإذا وجد مثلاً : حينما يقول يأتى يمينًا وشمالاً ، لا بد أن يجد هنا مُنْعطفًا، أو مكانًا ككهف يوارى . أو أكمة .... إلخ .

إذن .. أبو بكر ضحى بذاتيته . هب أن هناك رصدًا . من الذى يُؤْخذ أول شيء من الرصد أبو بكر .

الطلب : أبو بكر .

اليمين : أبو بكر .

الشمال : أبو بكر .

إذن .. قوله : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » الخوف هنا ليس على ذاتيته ؛ لأنه ضحى بذاتيته فى المواقف كلها . وإنما الخوف هنا على رسول الله ﷺ .

هذا درس يعطينا أنه إذا ما كن فى الناس رائد فِكْر، أو رائد إصلاح، أو رائد جهاد يكون من تمام إيمان الناس أن يحافظوا على هذا الرائد . لأنه ليس كل أحد يصلح أن يكون رائدًا . هناك أناس يعوضون إن ماتوا ، وأناس لا يعوضون .

إذن .. يجب أن يكون من يعوض فداء لمن لايعوض . حين يكون هناك من يعوض فداء لمن لا يعوض ، يكون هنا إيمان بالدعوة من جميع أطرافها ؛ من

مركزها لبّا ، ومن محيطها ، ومن أقطارها ، ومن كل شيء، الكل يضحى من أجل هذا .

لكن هذا يجب أن نفهم أنه يعيش للدعوة ، لا بد أن نعرف من تصرفاته أنه لا يعيش لنفسه. ولا للمحيطين به . حينئذ يستحق أن يضحى كل فرد من الأفراد المحيطين به ليبقى عنوانًا للدعوة عنوانًا للرأى . عنوانًا للفكرة . كذلك كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

الرسول ﷺ يخاطب من ناحية يقين المعاينة فيقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! » انظر إلى يقين المعاينة . فكأنه عاين: الله ثالثهما .

وما دام هو يتحدث من ناحية يقين المعاينة والله ثالثهما ، وهم فى معية الله. والمعية من الضعيف مع القوى تضفى على الضعيف قوة من القوى .

هب أن رجلاً ضعيفًا صار مع فارس وبعد ذلك داهمته قوة ، الضعيف لا يواجه إلا بالفارس فحين يكون الإنسان فى معية الله يواجه كل الأحداث بالله . ولكنه حين ينفصل عن الله ؛ يواجه كل الأحداث بنفسه : « ما بالك باثنين الله ثالثهما » .

وما دام الله ثالثهما ؛ فإنه يرد على أبى بكر بأنه لوضع أحدهم عينيه تحت أقدامه لا يرانا ؛ لأنهم فى معية من لا تدركه الأبصار .

إذن .. قانون القوى هو المسيطر .

وننظر إلى حدث « أم معبد » فى الهجرة

أم معبد تستقبل ركب الهجرة ، ولا تجد عندها ما تقربه . ليس عندها شيء . والكريم حين يؤذى بصدمة الإعسار تكون شديدة عليه . حينئذ يجود بما عنده ولم يكن عندها إلا شاة ضرعها ليس فيه شيء . فقدمتها فمسح رسول الله ﷺ على ضرعها فدر لبنًا .

ليس هناك اضطرار أكثر من هذ !!

ليس عندهم وأيضًا هى ليس عندها، فلا الطارق عنده، ولا المطروق عنده. إذن .. الأسباب غير موجودة .

فالحق سبحانه وتعالى يجرى خرق النواميس فيها . فيدر ضرعها ، فتشرب هى ويشربون هم .

وبعد ذلك : نأتى إلى ملحظية الاستقبال : وملحظية الاستقبال يجب أن نفهم فيها أنها احتشاد بمكلف ، واحتفال بمن يقيد حركة . لو كنا سنحتفل برجل يطلق حركتنا فى الوجود ، فإن الأمر سيكون سهلاً .

ولكن هذا الرسول جاء بتشريع يقول : افعل كذا ولا تفعل كذا . جاء ليقيد حركتهم .

فبعد أن كنتم أحرارًا فيما تأتون ،وفيما تدعون . لا يحكمكم التزام بمنهج ولا أمر من مشرع . أنتم ستصبحون مقيدين ملتزمين !!

فكيف يفرح الإنسان بالمقيد والملزم ؟

هذا شيء عجيب !!

أنا أفهم : أننا نفرح برجل يعطينا راحة .. بحبوحة .. أما هذا فجاء بجماعته « المهاجرين » وليس لهم شيء ، وكان ولا بد وأن يستقبلهم الأنصار بأرزاق لأنهم لا أرزاق لهم ؛ وبأماكن لأنهم تركوا بيوتهم وأهليهم ، فكانوا لا بد أن يكونوا أهلاً لهم بدل أهلهم ومالاً لهم بدل أموالهم وسكنًا لهم بدل سكنهم ، ويقيدهم منهج جديد .

كيف يفرحون بهذا ؟ ! مما يدل على أن صفقة الإيمان حين تعقد يجب أن يلحظ فيها لا التقييد الذى يقيد الحركة ، ولكن الجزاء على تقييد هذه الحركة . ولا شك أن الجزاء على تقييد الحركة ، والجزاء على التضحيات التى تنتظر

الأنصار ليقدموها للمهاجرين قارنوها بما أعد لهم ، وأيقنوا بأنه معد ، قارنوها بهذا فوجدوها أمرًا ضعيفًا يستحق أن يوهب كما تهب أنت الثمن لمن باع لك السلعة طمعًا فى أن السلعة ستكون أكثر من الثمن .

ولذلك نجد لونًا من التآخى يحدثه رسول الله ﷺ ؛ ليكون أسوة تسير فى دنيا الإيمان كلها، وتنتظم جماعات المسلمين .

النعم التى ينعم الله بها على عباده كثيرة .

ومن الممكن أن تتعدى نعمتك إلىّ فى أى مظهر من مظاهر النعم : مالا ، مركبًا ، دارًا ، زرعًا ، ثمرًا . كل نعمة يمكن إلا نعمة الله بالمرأة على الرجل ؛ فتلك نعمة لا يحب أحد أن يشارك فيها أبدًا .

هذه قمة الأشياء التى يحتفظ بها ، ولا تسمح بها النفس .

تجدها عند الأنصار . فالمهاجرون خرجوا من ديارهم ومن أموالهم ، ومن أزواجهم يأتى الرجل من الأنصار المتزوج من امرأتين ، فيقول للمهاجر : رأهما ، أى : انظرهما التى تعجبك أطلقها لكى تتزوجها أنت !

إيثار من نوع جديد . أرونى أية سماحة هذه !!

الشيء الذى تضن به بنية الغيرة فى الإنسان ، كل نعمة تحب أن تتعدى إلى سواك إلا أن تتمتع بامرأة ثم يراها أحد ، أو يتمتع بها أحد .

لكن هذه أيضًا أظهرت حميتهم لإيمانهم الجديد ، هذه الحمية التى تأتى فى الجنس بالنسبة للمرأة فيضحى الواحد منهم بامرأة من مرأتيه حتى يهبها إلى المهاجر .

ولما يأتى رسول الله ﷺ فيجد أن الحق سبحانه وتعلى قد هيأ له الزمان ، وهيأ له المكان المناسب لانتشار الدعوة ، فيبدأ أولاً بمهبط الإشعاع وهو المسجد . لأن فيه : مكان دوام إعلان الولاء لله الذى آمن به .

قلنا : إنه يتكرر حتى يتكرر إعلان الولاء ؛ لأن مشاغل الحياة قد تأتى فتسمع المؤذن للفجر يقول : الله أكبر ، وتسمع المؤذن فى الظهر يقول : الله أكبر ، وفى العصر يقول الله أكبر ، وفى المغرب يقول : الله أكبر ، وفى العشاء يقول : الله أكبر . ثم تنام لا يشغلك شيء وأنت نائم .

ولذلك ، إذا ما لاحظت قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾ [النور : ٣٥] .

ماذا قال بعدها ؟

قال : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] .

وفى قراءة أخرى : ﴿ يُسَبَّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ رِجَالٌ ﴾ .

لو نظرت إلى مدلول العبارة لوجدت كلمة ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ جار ومجرور أين متعلقه ؟ لابد له من متعلق . وهذه جاءت بعد ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ ... ﴾ إلخ الآية وبعدها قال : ﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ .

فكأن تجليات نور الحق تنشأ فى المكان الذى تستحضر فيه أنت نفسك بين يدى الحق فتهب عليك تجليات الحق سبحانه وتعالى خمس مرات فى اليوم ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ ﴾ [النور : ٣٦] لأنها اللحظة التى يناجون فيها ربهم . اللحظة التى فيها خلوتهم مع ربهم .

إذن .. فالرسول ﷺ أول ما صنع : هيأ المكان الذى يجب أن يكون فيه دوام إعلان الولاء لله الذى آمن به الجميع .

وما دام دوام إعلان الولاء لله الذى آمن به الجميع ، فإن الجميع ارتبطوا - باختلاف أهوائهم واختلاف نزعاتهم واختلاف ميولهم - بشيء واحد . والمربوط به ليس مماثلاً .

قلنا سابقاً : إن الذى يتعب الناس مع بعضهم خوف أحدهم أن يتبع واحدًا فى رأيه ، أو أن واحدًا يستذل واحدًا بمنهجه . نقول له : لا . حين تكون أنت وهو خاضعين لمنهج إله واحد فالذلة منك ومنه معًا سواء لمن ؟ لغير مماثل .

وما دام الذلة لغير مماثل وأقوى ، إذن .. كلنا نصدر عن حركة واحدة . وإذا ما نظرنا إلى اختلال هذه فى الأمم التى نعايشها الآن وجدنا أن أصل البلاء فى الأمة العربية والإسلامية أن كل واحد له هوى ، وكل واحد له رأى .

إذن .. المسألة للقوى ، والويل للغافل ، والويل للضعيف ، والويل للذى ليس له نصير ، ولكننا لو كانت أهواؤنا جميعًا صادرة عن هوى واحد كما قال الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » حين يكون هوى الجميع تبعًا لما جاء به النبى ﷺ فلا تضارب فى الحركة . ولا تضارب فى الهوى ، ولاتنازع ، ولا استذلال من أحد لأحد ، ولا اعتزاز لأحد على أحد . وسيظل العالم فى هذا الشقاء ، وفى هذا التمزق ، وفى هذا الانهيار حتى الخلقى ؛ مادام كل واحد له صوت واحد من دماغه .

نقول لهم ارجعوا إلى صوت واحد وهو : صيحة السماء فى أُذن الأرض .

فإن رجعتم إلى صيحة السماء فى أذن الأرض فستفيقوا جميعًا ، وستجدوا عزكم جميعًا . وستجدوا أنكم جميعًا تحكمون عن الله ، وحين تحكمون عن الله يستنكف الواحد منا أن يظلم أحدًا . يستنكف الواحد منا أن يستذل أحدًا . يستنكف الواحد منا أن يضن بقوته على ضعيف .

ولكن ما دمتم هكذا فليكن الأمر على ما أنتم عليه الآن .

الاستطراق الذى صنعه رسول الله ، قد يقال فى المآخاة ؟ نقول : لا . إن أول استطراق : الاستطراق العقدى فى وحدة التلقى عن إله واحد والاجتماع والوقوف بين يدى الله فى مكان واحد ونسمع كلنا مبدأ واحدًا لا نختلف فيه أبدًا وهو : الله أكبر ، ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله .

ثم يأتى بعد ذلك كل استطراق اقتصادى أو اجتماعى أو عهدى حلفى - كما صنع مع اليهود عاهدهم أولاً ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان المفروض فيهم كما كانوا يستفتحون على الذين كفروا ، كان المفروض فيهم أن يكونوا أول مؤمن به ، ولكنهم على العكس عاونوا الكافرين على رسول الله ﷺ ، وما علموا من غبائهم أنهم هم الذين حموا الإسلام فى المدينة .

انظروا كيف مكر الله بهم ؟

كانوا قبل أن يجيء الإسلام يستفتحون على الذين كفروا .

كانوا يقولون : يأتى نبى منكم نتبعه نحن ؛ لأننا أتباع نبى وحين نتبعه نقتلكم أيها الوثنيون قتل عد وإرم !!

فكانوا يهددون الأوس والخزرج بالنبى المنتظر ، الذى عندهم علم به ، وجاء فى كتبهم ، ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ .

فكانوا يتوعدون الأوس والخزرج بأنه إذا ما ظهر ذلك النبى فسنتبعه ، وحين نتبعه نكون قوة به ، وحين نكون قوة به نقتلكم قتل عاد وإرم .

فالأوس والخزرج سمعوا منهم هذا ، فحين علموا منهم أن نبيًا قد ظهر بمكة قالوا : هذا هو النبى الذى توعدنا به يهود ، هيا بنا لنسبق إليه قبل أن يسبقونا إليه .

فكأن الله كما جعل الكافر . فى مبدأ الانطلاق للهجرة . الهادى لركب محمد ﷺ وصاحبه . وهو الذى جاء بأنصار الإيمان إلى مكة يهود .

إذن .. فالكفار واليهود تعاونا على نصر الإسلام ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] حينما استقر رسول الله ﷺ فى المدينة ، ووجد فى الأنصار ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

ويقول الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [الحشر : ٩] كل هذا أظهر حفيظة قريش .

ولكن قريشًا رأت أنها بصدد قوة ، هذه القوة أصبحت تهددهم ، وتهدد مركز المهابة فى نفوسهم .

ومركز المهابة لقريش : أن تجارتهم لا يتعرض لها . لا فى الجنوب ولا فى الشمال، ولماذا لا يتعرض لتجارتها ؟

لأن الحج إلى بيت الله كان موجودًا ، وكل قبيلة مهما نأت كانت منها من يحج إلى بيت الله كل عام .

إذن .. فأى قبيلة يمرون بها شمالاً إلى الشام ، وجنوبًا إلى اليمن سيمرون بقبائل ؛ وهذه القبائل يضطرها أمرها أن تذهب إلى الحج . فكل قبيلة من هذه القبائل ستكون بين يدى قريش بمكة ، فيخافون أن يتعرضوا لتجارتهم بسوء ؛ لأن الانتقام منهم مؤكد حين يذهبون إلى بلادهم .

فكانت المهابة لقريش من هذه الناحية . ولذلك كانت أى قبيلة تخاف أن تجير عليهم ومعنى : تجير عليهم : يعنى يقول : أنا مجير هذا من قريش . لا يستطيع أحد أن يقول هذه الكلمة أبدًا .

فإذا كانت قريش بهذه المنزلة ، ووجد فى الطريق للشام قوة إسلامية أصبحت تهددها، وحين تهددها أصبحت قريش تفقد مهابتها ؛ لأن الذى جاء لها بالصيت : رحلة الشتاء ورحلة الصيف؛ فحين توجد قوة فى المدينة تستطيع أن تقف أمامها ، وهذا ما حدث فى يام بدر فى العير والنفير !! .

إذن .. فقريش أصبحت تخاف هذه المهابة على نفسها خوفًا اقتصاديًا ، وخوف مهابة ، أن تسقط هذه المهابة ، ولذلك كان ولا بد أن تقع معاهدة بين قريش الكافرة وبين رسول الله ﷺ وهي معاهدة الحديبية .

إذن .. أصبح رسول الله قوة . وما دام قوة : تُعاهِد وتعاهد . يعني : تعطي شيئًا وتأخذه .

إذن : فقوته قد اعترف بها .

حين أصبح قوة يعترف بها . لمكان موقع المدينة بالمهاجرين وبالأنصار من الإسلام ، ومن قبائل قريش . استطاع محمد ﷺ أن يعاهد .

وحين عاهد أمن الشر من جانب ، فتفرغ لجوانب أخرى .

إذن .. فالهجرة إلى المدينة كانت انطلاقًا بالدعوة ، ولذلك تجد كل الأحداث الضخمة نشأت بعد الهجرة .

الهجرة في ذاتها حينما تكون حدثًا إسلاميًا ، ويجب أن تعلم أن رسول الله ﷺ وعمره الإيماني من ساعة أوحي إليه إلى أن لقي الرفيق الأعلى كل جزئية من جزئيات حياته ، حركة . أي فعل . أو قول ، وحركة غيره أمامه ، وقول غيره أمامه ويقره دستور لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أقضية الإسلام التي تنشأ إلى أن تقوم الساعة .

فحين نريد أن نأخذ العِبَر من حياته ﷺ ، يجب أن نأخذ العبر لا على أنها قصة تاريخية نقتل بها الوقت ، ولا أن نأخذها ترفا عقليًا ، ولكن نأخذها على أنها تشكل نمطًا سلوكيًا .

ومعنى : تشكل نمطًا سلوكيًا : أن كل من يعي قضية من قضايا الإيمان وجزئية من جزئيات الإسلام مسئول أمام الله عن بلاغها نظريًا ، وعن توضيحها تطبيقيًا . وعن إمكانها أن تحدث سلوكيًا ؛ لأن الذي يظهر الآن أن

مبادئ الإسلام شيء ما أجمله !! ولكن تطبيق المسلمين لما يعلمون من الإسلام شيء يُزَهِّدُ فيه .

فهم بتصرفاتهم يصرفون الناس أن ينظروا في الإسلام . ولذلك لا أزال أذكر كلمة المستشرق المفكر في القمة - الذي أسلم - قال : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين » . لأنه ربما لو كان عرف المسلمين بسلوكهم المخالف لم يسلم .

لأن السلوك يظن البعض أنه يمثل الإسلام هكذا فهموا !!

نقول : لا .. تلك نظرية يجب أن تبتعد في مجال المقارنات المبدئية، لماذا؟ لأن الإسلام حين يشرع شيئًا ليس معناه أن كل مؤمن بالإسلام سينفذه . قد يخالف ، وما دام قد يخالف يكون قد ارتكب جريمة في الإسلام ومادام قد ارتكب جريمة فلا بد لها من عقوبة .

فالآفة ألا تجد في مبدأ الإسلام عقوبة على شيء تراه أنه جريمة ، أما أن توجد جريمة وبعد ذلك تقول : المسلمون يفعلون !!

نقول : يفعلون ولا يجرمون ، أم يفعلون ويجرمون ويعاقبون ؟ !

إذن .. الآفة الآن أنهم يفعلون ولا يجرمون !!

وقد يجرمون ولا يعاقبون .. لماذا ؟

لأن الإسلام معطل الآن ، ليس له وظيفة ، ليس له شغل ، موضوع في المتحف أو في رؤوس البعض . والله يريد الإسلام مبدأ نظريًا ينقل ويحقق ، ومبدأ تطبيقيًا يطبق ، فإذا ما قصرنا في الأول فقد قصرنا في حمل العلم الذي قال فيه الرسول ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » .

وإذا ما علمنا وقصرنا فى لتطبيق ابتدأ غير المسلمين لا ينظرون إلى إيماننا ولكن ينظرون إلى سلوكنا .

فحين يرون سلوكنا غير إيمانى يزهدون فى الإسلام .

إذن .. فنحن الذين نزهد ى الإسلام وكان الأولى أن نكون الداعين إلى الإسلام [1] .

(١) شريط كاسيت بعنوان : « الهجرة النبوية .. دروس وعبر » لفضيلة الشيخ الإمام أُهدى إلينا من الأخ الأستاذ محمد عوض ، بإذاعة القرآن الكريم ، مصر .

معنى الهجرة

قال الشيخ الإمام : كلمة « هاجروا » مأخوذة من الفعل الرباعى « هاجر » ، والاسم « هجرة » والفعل « هاجر » . وهجر غير هاجر . فقد يترك الإنسان مكانًا يقيـ فيه فيكون هذا معناه « هجر » أى يترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب ، إنما هاجر لا بد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألجأه إلى أن يهاجر .

إذن .. فهناك عمليتان : اضطهاد الكفار للمسلمين ؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا فى أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم ، ما حدثت الهجرة . ولكن الاضطهاد الذى لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم .

وقد تقدم قول المتنبى :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا　　ألا تفـــارقهم فالراحلون همو

أى : أنك إذا تركت قومًا دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذى رحلت عنهم ، ولكن المهاجرة التى قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك .

إذن.. هجر تكون من جهة واحدة ، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر[1].

(١) والهجرة : الخروج من أرض إلى أرض والمهاجرون : الذين ذهبوا مع النبى ﷺ مشتق منه وتهجّر فلان أى تشبه بالمهاجرين . وقال عمر بن الخطاب ، رضى الله تعالى عنه : هاجروا ولا تهجروا ؛ قال أبو عبيد : يقول أخلصوا الهجرة لله ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم ، فهذا هو التهجُّر ، وهو كقولك فلان يتحلم وليس بحليم ويتشجع أى أنه يظهر ذلك وليس فيه .
قال الأزهرى : وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن ؛ يقال : هاجر الرجل إذا فعل ذلك ؛ وكذلك كل مخل بمسكنه منتقل إلى قوم =

= آخرين بسكناه ، فقد هاجر قومه ، وسمى المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التى نشؤوا بها لله ، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة ؛ فكل من فارق بلده من بدوى أو حضرى أو سكن بلداً آخر ، فهو مهاجر ، والاسم منه الهجرة .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وكل من أقام من البوادى بمباديهم ومحاضرهم فى القيظ ولم يلحقوا بالنبى ، ﷺ ، لم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التى أحدثت فى الإسلام وإن كانوا مسلمين ، فهم غير مهاجرين ، وليس لهم فى الفئ نصيب ويسمون الأعراب .

الجوهرى : الهجرتان هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة . والمهاجرة من أرض إلى أرض : ترك الأولى للثانية .

قال ابن الأثير : الهجرة هجرتان : إحداهما التى وعد الله عليها الجنة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] فكان الرجل يأتى للنبى ﷺ ، ويدع أهله وماله ولا يرجع فى شئ منه وينقطع بنفسه إلى مهاجره ، وكان النبى ﷺ ، يكره أن يموت الرجل بالأرض التى هاجر منها ، فمن ثم قال : لكن البائس سعد بن خولة ، يرثى له أن مات بمكة »[1] وقال حين قدم مكة : « اللهم لا تجعل منايانا بها »[2] ؛ فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة .

والهجرة الثانية : من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى ، فهو مهاجر ، وليس بداخل فى فضل من هاجر تلك =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٢٩٣٦] عن سعد بن مالك عن أبيه رضى الله عنهما.
(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [٢/٢٥] عن ابن عمر رضى الله عنهما. وصححه الشيخ شاكر رقم [٤٧٧٨] .

= الهجرة . وهو المراد بقوله : لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة[1] » ؛ فهذا وجه الجمع بين الحديثين ، وإذا أطلق ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة . لسان العرب [٥/٢٥١] .

وقال الفيروز آبادى :

الهجر : ضد الوصل ، وقد هجره هجراً بالفتح وهجراناً بالكسر ، والاسم الهجرة .

والمهاجرة من أرض إلى أرض : ترك الأولى للثانية .

والتهاجر : التقاطع .

وقد هجر المريض يهجر هجراً الفتح فهو هاجر ، والكلام مهجور . قال أبو عبيد : يروى عن إبراهيم مايثبت هذا القول فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] قال : قالوا فيه غير الحق ألم تر إلى المريض إذا هجر قال غير الحق ، وعن مجاهد نحوه .

والهجر بالضم : الاسم من الإهجار وهو الإفحاش فى المنطق والخنا .

والهجر والهجران يكون بالبدن وباللسان وبالقلب ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [النساء : ٣٤] ى بالأبدان ؛ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ باللسان أو بالقلب ؛ وقوله تعالى: ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ محتمل للثلاثة ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر : ٥] حث على المفارقة بالوجوه كلها .

والمهاجرة فى الأصل : مصارمة الغير ومتاركته . والمهاجرة فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ ﴾ [البقرة :٢١٨] و ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ وغيرهما من الآيات فالظاهر منه أن المراد الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة إلى المدينة ، وقيل مقتضى ذلك ترك الشهوات والأخلاق الذميمة والخطايا . =

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود [٢٤٧٩] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٢١٦٦] صحيح .

= وقوله : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] أى تارك لقومى وذاهب إليه . وكذا المجاهدة تقتضى مع مجاهدة العدى مجاهدة النفس .

الهجر : الكلام المهجور لقبحه . وفى الحديث : « فلا تقولوا هجراً »[1] وأهجر فلان : إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد . وهجر المريض : إذا أتى بذلك من غير قصد ، قال تعالى : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٧] وقرئ تُهجِرون . وقد يشبه المبالغ فى الهجر بالمهجر فيقال : أهجر إذا قصد ذلك . ورماه بهاجرات ومهجرات أى بفضائح .

بصائر ذوى التمييز : [٥/٢٠٤،٢٠٥] .

(١) جزء من حديث رواه النسائى فى الكبرى [٢١٦٠] عن بريدة رضى الله تعالى عنه ، وأحمد فى المسند [٣/٦٣،٦٦] ومالك فى الموطأ [٢/٣٨٦] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه .

وقال الأرناؤوط فى المسند [١١٦٠٦] : حديث صحيح ، وإسناد أحمد ضعيف .

فضل الهجرة والترغيب فيها

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:٩٧]

« التوفي » معناه « القبض » ؛ فيقال : « توفيت ديني » أى قبضته مستوفياً. ويقال : « توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً .

والقبض له آمر أعلى، وهو الله الخالق سبحانه

ومن بعد ذلك يوجد ملك مُكَلَّف يقبض أرواح العباد هو « ملك الموت » ، كما أن هناك معاونين لملك الموت من الملائكة .

فالوفاة إذن تنسب مرة لله تعالى ، فالله سبحانه هو المتوفى : لأنه الآمر الأعلى ، وتنسب الوفاة مرة للملائكة كما فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام : ٦١] .

وتنسب أخرى إلى ملك الموت كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة : ١١] .

وإذا ما ذكر القرآن الكريم هذه الأساليب الثلاثة فى وصف عملية الوفاة فهل يعد هذا اختلاف وتناقض وتضارب فى أساليب القرآن ؟ بالطبع لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله، فهو الآمر الأعلى يصدر الأمر إلى ملك الموت، وملك الموت إمّا أن ينفذ بنفسه، أو يصدر الأمر لجنوده من الملائكة.

وقوله تعالى : ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الظلم هو أن تأخذ من صاحب الحق وتعطى غير ذى الحق ، والظلم يقتضى ظالماً ومظلوماً وأمرًا وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك؟ لا بد أنه فعل

ما يستوجب ذلك . فالإنسان بعد أن آمن بالله تعالى ورسوله، واتبع ما جاء به الرسول ، قد تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية النفس الإيمانية التى تقبل بها المنهج من الله ، ووازع تلك النفس التى تلح عليه بالانحراف. ويدور ما هو أشبه بالحوار بين النفس الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف. وعندما تتغلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه: إننى إن طاوعت وازع الانحراف أكون قد حققت شهوة عاجلة يعقبها خزى وندامة ، وإن رفضت الشهوة أكون قد أنصفت نفسي .

والصراع بين النفس الإيمانية والنفس الشهوانية قد ورد فى القرآن الكريم فى قصة ابنى آدم قابيل وهابيل ، يقول ربنا تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

هنا يقول هابيل لقابيل: لماذا تقتلنى ؟ إننى لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله تعالى فما ذنبي ؟

ويقول له : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] .

ولنتأمل قول ربنا العليم الحكيم : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ .

كأن هناك صراعاً فى نفس قابيل بين أمرين « اقتل » و « لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية فطوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شرة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيثيات تظهر وتتضح . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ويحفر ليوارى جثة غراب

آخر . هنالك قال قابيل كما جاءت فى القرآن الكريم : ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ [المائدة : ١٣] .

وهكذا نعلم أن ظلم النفس هو أن تخالف ما شرع الله لتلك النفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلود له ، وبعد أن يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه يشعر أنه ظلم نفسه .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ أى : فى أى شئ كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أى : لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم مع إخوانكم وانضممتم لمجتمع الإيمان ؟ ولماذا ظللتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون الفكاك ؟

وتكون إجابة الذين ظلموا أنفسهم : ﴿ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾ أى : أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفوهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف. وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يلين ولا ينفع ، تقول الملائكة : ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ .

وكأن هذا تنبيه آخر، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ؛ لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون أمر الله إنما هو الذى ربط يقينه بالأسباب . أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شئ فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو سبحانه مانح ومعطى الأسباب .

إن قوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ تعنى أن الحق سبحانه خلق الخلق جميعاً وأسكنهم الأرض، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضيق به مكان فليذهب إلى مكان آخر.

وإذا كان الإنسان قد اضطرته ظروف صنعتها أوضاع غير طبيعية فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات فذلك مناقضة لقضية الخلافة فى الأرض؛ لأن الخلافة لم توزع جماعة ما على أرض ما. فالإنسان، كل إنسان خليفة فى الأرض كل الأرض، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : ١٠] .

فقد جعل اللّه الأرض متضعة مسخرة مذللة للإنسان ، والأرض هى كل الأرض، والأنام هم كل الأنام. وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل ذلك العالم فى شقاء . فالذى يجعل الحياة فى الأرض فاسدة هو أن هناك أرضاً تحتاج إلى أناس ، وأُناس فى بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التى بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التى لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذى يعكر صفو الحياة سببه أنه يوجد فى كون اللّه أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة فى الأرض بغير شروطها ، فالذى يفسد الأمر فى الأرض أن الإنسان الخليفة فى الأرض نسى أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً فى الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً فى الكون فهذا هو الإفساد .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ٩٧] تعنى أن الإنسان إذا أقام على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى الأرض التى تسعه فيهاجر فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير؛ لأن اللّه قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة .

أما الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم من يقول عنهم الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٨] .

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى » ومستضعف حقيقى » ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له ، وجعل من نفسه ضعيفاً . هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقى » فهو من هؤلاء الذين يذكرهم الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

وهل الرجل يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمى نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها كزوج أو محرم لها ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف من الملائكة؛ لأنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ .

فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال، والاحتيال هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد

تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتيال قد يوسع الإنسان من فرص تلك القوة .
فمثلاً الذى قام ببناء أهرامات مصر، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك بالحيلة ، والذى جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة أمتار، ثم نقلها وأقامها . إنه فعل ذلك بالحيلة .
فالحيلة هى إذن : فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه .
كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة، وكانت معرفة الطريق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فى زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات ، وحينما قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق، وكان دليله كافراً، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل.
ولنتأمل قول الحق سبحانه وتعالى:
﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٩] .
﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى من جاء ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية :
﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٩٨] .
ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ ﴿ عَسَى ﴾ ليحثهم على رجاء أن يعفو الله عنهم، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث. ونعرف أن ﴿ عَسَى ﴾ للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتى بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .
فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول: عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان : عساى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى

قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ؛ لذلك فعليه أن يقول: عسى الله أن يفعل كذا، وفى هذا اعتماد على مطلق القوة. وإذا كان الله هو الذى يقول : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ فهذا إطماع من كريم قادر[(١)].

(١) عسا : عسا الشيخ يعسو عسواً وعسواً وعسياً مثل عتيا وعساء وعسوة وعسى عسّي ، كله : كبر مثل عتي . ويقال للشيخ إذا ولى وكبر : عتا يعتو عتيا ، وعسا يعسو مثله ، ورأيت فى حاشية أصل التهذيب للأزهرى الذى نقلت منه حديثاً متصل السند إلى ابن عباس قال : قد علمت السنة كلها غير أنى لا أدرى أكان رسول الله ، ﷺ ، يقرأ من الكبر عتيا أو عسيا فما أدرى أهذا من أصل الكتاب أم سطره بعض الأفاضل . وفى حديث قتادة بن النعمان : لما أتيت عمى بالسلاح وكان شيخاً قد عسا أو عشا ؛ عسا ، بالسين المهملة ، أى كبر وأسن من عسا القضيب إذا يبس ، وبالمعجمة أى قل بصره وضعف . وعست يده تعسو عسواً : غلظت من عمل ؛ قال ابن سيده : وهذا هو الصواب فى مصدر عسا . وعسا النبات عسواً : غلظ واشتد ؛ وفيه لغة أخرى عسى يعسى عسّي ؛ وأنشد :
يهوُون عن أركان عز أدرما عن صامل عاس ، إذا ما اصلخما
قال : والعساء مصدر عسا العود يعسو عساءً ، والقساء مصدر قسا القلب يقسو قساءً . وعسا الليل : اشتدت ظلمته ؛ قال :
وأظعن الليـــل إذا الليــل عسا
والغين أغرق . والعاسى مثل العاتي : وهو الجاني . ولعاسي : الشمراخ من شماريخ العذق فى لغة بلحرث بن كعب . الجوهري : وعسا الشئ يعسو عسواً وعساءً ، ممدود ، أى يبس واشتد وصلب . والعسا ، مقصوراً : البلح والعسر : الشمع فى بعض اللغات .
وعسى : طمع وإشفاق ، وهو من الأفعال غير المتصرفة ؛ وقال الأزهري : عسى حرف من حروف المقاربة ، وفيه ترج وطمع ؛ قال الجوهري : لا يتصرف لأنه وقع بلفظ الماضى لما جاء فى الحال ؛ تقول : عسى زيد أن يخرج ، وعست فلانة أن =

= تخرج ، فزيد فاعل عسى وأن يخرج مفعولها ، وهو بمعنى الخروج إلا أن خبره لا يكون اسماً ، لا يقال: عسى زيد منطلقاً . قال ابن سيده : عسيت أن أفعل كذا وعسيت قاربت ، والأولى أعلى ، قال سيبويه : لا يقال عسيت الفعل ولا عسيت للفعل ، قال : اعلم أنهم لا يستعملون عسى فعلك ، استغنوا بأن يفعل عن ذلك كما استغنى أكثر العرب بعسى عن أن يقولوا عسيا وعسوا ، وبلو أنه ذاهب عن لو ذهابه ، ومع هذا فإنهم لم يستعملوا المصدر في هذا الباب كما لم يستعملوا الاسم الذي في موضعه يفعل في عسى وكاد ، يعني أنهم لا يقولون عسى فاعلاً ولا كاد فاعلاً فترك هذا من كلامهم للاستغناء بالشيء عن لشيء ؛ وقال سيبويه : عسى أن تفعل كقولك دنا أن تفعل ، وقالوا : عسى الغوير أبؤساً أي : كان الغوير أبؤساً ، حكاه سيبويه ؛ قال الجوهري : أما قولهم عسى الغور أبؤساً فشاذ نادر ، وضع أبؤساً موضع الخبر ، وقد يأتي في الأمثال ما لا يأتي في غيرها ، وربما شبهوا عسى بكاد واستعملوا الفعل بعده بغير أن فقالوا عسى زيد ينطلق؛ قال سماعة بن أسول النعامي :

عسى اللّه يغني ، عن بلاد ابن قادر ، بمنهمر جون الرباب سكوب

هكذا أنشده الجوهري ؛ قال ابن بري : وصواب إنشاده :

عن بــلاد ابن قارب

وقال . كذا أنشده سيبويه ؛ وبعده .

هجف تحف الريح فوق سباله ، له من لويات العكوم نصيب

وحكى الأزهري عن الليث : عسى تجرى مجرى لعل ؛ تقول : عسيت وعسيتما وعسيتم وعست المرأة وعستا وعسين ؛ يتكلم بها على فعل ماض وأميت ما سواه من وجوه فعله ، لا يقال يعسى ولا مفعول له ولا فاعل .وعسى ، في القرآن من اللّه جل ثناؤه ، واجب وهو من العباد ظن ، كقوله تعالى : عسى اللّه أن يأتى بالفتح ، وقد أتى اللّه به ؛ قال الجوهري : إلا في قوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ ﴾ ؛ قال أبو عبيدة : عسى من اللّه إيجاب تجاءت على إحدى اللغتين =

- لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين ؛ قال ابن سيده : وقيل : عسى كلمة تكون للشك واليقين ؛ قال الأزهري : وقد قال ابن مقبل فجعله يقيناً أنشده أبو عبيد :

ظنى بهم كعسى ، وهم بتنوفة ، يتنازعون جوائز الأمثال

أى ظنى بهم يقين . قال ابن برى : هذا قول أبي عبيده ، وأما الأصمعي فقال . ظنى بهم كعسى أى ليس بثبت كعسى ، يريد أن الظن هنا وإن كان بمعنى اليقين فهو كعسى في كونها بمعنى الطمع والرجاء ، وجوائز الأمثال ما جاز من الشعر وسار . وهو عسى أن يفعل كذا وعسٍ أى خليق ؛ قال ابن الأعرابي : ولايقال عسي . وما أعساه وأعس به وأعس بأن يفعل ذلك : كقولك أحرِ به ، وعلى هذا وجه الفارسي قراءة نافع : فهل عسِيتم ، بكسر السين ، قال : لأنهم قد قالوا هو عسٍ بذلك وما أعساه وأعس به ، فقوله عسى يقوى عسِيتم ، ألا ترى أن عسٍ كحرٍ وشجٍ؟ وقد جاء فَعَل وفَعِلَ في نحو ورى الزند ووري ، فكذلك عسيتم وعسِيتم ، فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسِيتم أن يقول فيه عسى زيد مثل رضى زيد ، وإن لم يقله فسائغ له أن يأخذ باللغتين فيستعمل إحداهما في موضع دون الأخرى كما فعل ذلك في غيرها. وقال الأزهري : قال النحويون : يقال عَسِي ولا يقال عَسِى . وقال اللّه عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [محمد : ٢٢] ؛ اتفق القراء أجمعون على فتح السين من قوله عسيتم إلا ما جاء عن نافع أنه كان يقرأ فهل عسِيتم ، بكسر السين ، وكان يقرأ : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ فدل موافقته القراء على عسى على أن الصواب في قوله عسيتم فتح السين . قال الجوهري : ويقال عسيت أن أفعل ذلك وعسِيت ، بالفتح والكسر ، وقرئ بهما فهل عسيتم وعسِيتم . وحكى اللحياني عن الكسائي : بالعسى أن يفعل ، قال : ولم أسمعهم يصرفونها مصرف أخواتها ، يعني بأخواتها حرى وبالحرى وما شاكلها .

لسان العرب [٥٦:٥٤/١٥] .

وبعد أن يذكر سبحانه ما يحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل فى أرض لا يمكنه فيها إعلاء دينه ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض تعلوها أحكام الاسلام وفيها إخوانه من المؤمنين؛ ومع ذلك فالذى ينوى فى نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معان عليها لأن اللّٰه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] .

فالذى يهاجر فى سبيل اللّٰه تعالى سيجد السعة إن كانت هجرته خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ وفى البداية هجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين فى مكة على دينهم .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختر النبى أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية فى الجنوب أو فى الشمال؟

نقول : لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها، فكل القبائل تحج إلى بيت اللّٰه تعالى ، وكانت لقريش السيادة على المكان الواقع فيه البيت ولم تكن هناك أى قبيلة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش، ولذلك أمر رسول اللّٰه ﷺ المسلمين الأوائل بالهجرة إلى الحبشة، والعلة فى الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكا لا يظلم عنده أحد . وكان العدل فى ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان. وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان.

ويقول الخليفة الراشد على بن أبى طالب رضى اللّٰه تعالى عنه : عجبت للقوم يسعون فيما ضمن لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا .

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله. والشاعر يقول :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكن أخلاق الرجال تضيق

وساعة تقرأ كلمة ﴿ مُرَٰغَمًا ﴾ تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون. ومادة « مراغم » هى « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرغام » أى « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أى أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه. ومادام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر، فمعناه أن الثانى كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شئ، لكنه رفض وفعل ما يريد[1] .

(١) رغم : الرَّغم والرُّغم والرِّغم : الكره ، والمرغمة مثله . قال النبي ﷺ بعثت مَرْغمة؛ المَرْغمة : الرُّغم أى بعثت هواناً وذلاً للمشركين ، وقد رغمه ورغَّمه يرغم ، ورغمت السائمة المرعى ترغمه وأنفته تأنفه : كرهته ؛ قال أبو ذؤيب:

وكن بالروض لا يرغمن واحدة
من عيشهن ، ولا يدرين كيف غد

ويقال : ما أرغَمُ من ذلك شيئاً أى ما أنقمه وما أكرهه . والرُّغم : الذلة. ابن الأعرابى : الرُّغم التراب ، والرُّغم الذل ، والرُّغم القسر . قال : وفى الحديث : وإن رَغم أنفه أى ذل ؛ رواه بفتح الغين ؛ وقال ابن شميل : على رَغْم من رَغَم ، بالفتح أيضاً . وفى حديث معقل بن يسار : رغم أنفى لأمر لله أى ذل وانقاد . ورغم أنفى للّٰه رَغْما ورَغَم يرغُم ويرغم وَرَغِم ؛ الأخيرة عن الهجرى ، كلُّه : ذل عن كره ، وأرغمه الذل . وفى الحديث : إذا صلى أحدكم فليلزم جبهته وأنفه الأرض حتى يخرج منه الرُّغم ؛ معناه حتى يخضع ويذل ويخرج منه كبر الشيطان ، وتقول : فعلت ذلك على الرُّغم من أنفه . ورغَم فلان ، بالفتح ، إذا لم يقدر على الانتصاف ، وهو يَرغَم رَغْماً ، وبهذا المعنى رغم أنفه .

والمرغَم والمرغِم الأنف ، وهو المرسن والمخطم والمعطس . =

= قال الفرزدق يهجو جريراً :

تبكي المراغة بالرغام على ابنها ، والناهقات يهجن بالإعــوال

وفى الحديث : أنه ، عليه السلام ، قال : « رَغِم أنفه ثلاثاً » قيل : من يا رسول الله؟ قال : « من أدرك أبويه أو أحدهما حياً ولم يدخل الجنة »[1] . يقال : أرغم الله أنفه أى ألزقه بالرغام ، وهو التراب ؛ هذا هو الأصل ، ثم استعمل فى الذل والعجز عن الانتصاف والانقياد على كره .

وفى الحديث : وإن رغم أنف أبى الدرداء[2] أى وإن ذل .

وقيل : وإن كره .

وفى حديث سجدتى السهو : كانتا ترغيماً للشيطان[3].

(١) أخرجه مسلم [٩/٢٥٥١] عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ . قال : « رغم أنف ، ثم رغم أنف ثم رغم أنف » قيل : من ؟ يا رسول الله : قال من أدرك أبوه عند الكبر ، أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة » .

(٢) عن وهب بن عبد الله أن أبا الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دخل الجنة » قال : قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى أو سرق ؟ قال : « وإن زنى أو سرق » قلت : وإن زنى أو سرق ؟ قال : « وإن زنى أو سرق على رغم أنف أبى الدرداء » قال : فخرجت لأنادى بها فى الناس، قال : فلقينى عمر، فقال ارجع ، فإن الناس إن علموا بهذه اتكلوا عليها، فرجعت فأخبرته ﷺ ، فقال ﷺ : « صدق عمر » . [رواه أحمد فى المسند [٦/٤٤٢] ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد [١/٢١] وقال : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط ، وإسناد أحمد أصح ، وفيه ابن لهيعة وقد احتج به غير واحد .

(٣) أخرجه ابن ماجه [١٢١٠] عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا شك أحدكم فى صلاته فليلغ الشك وليبن على اليقين . فإذا استيقن التمام سجد سجدتين . فإن كانت صلاته تامة كانت الركعة نافلة . وإن كانت ناقصة ، كانت الركعة لتمام صلاته ، وكانت السجدتان رغم أنف الشيطان » . وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٩٩٦] : حسن صحيح .

وعندما يرى الإنسان إنساناً جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف فى التراب، ويقال فى المثل الشعبى المصري: أريد أن أكسر أنف فلان.

إذن قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا ﴾ أى أنه سبحانه يعطى المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذله يشعر بالخزى إلى درجة أن تكون أنفه فى الرغام .

= وفى حديث أسماء : إن أمى قدمت عليَّ راغمة مشركة أفأصلها ؟ قال : « نعم »[1] .

لما كان العاجز الذليل لا يخلو من غضب ، قالوا : ترغم إذا غضب وراغمة أى غاضبة ، تريد أنها قدمت على غضبى لإسلامى وهجرتى متسخطة لأمرى أو كارهة مجيئها إلى لولا مسيس الحاجة ، وقيل : هاربة من قومها من قوله تعالى : ﴿ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٠٠] ؛ أى مهرباً ومتسعاً ؛ ومنه الحديث : « إن السقط ليراغم ربه إن أدخل أبويه النار »[2] . أى يغاضبه . وفى حديث الشاة المسمومة : فلما أرغم رسول الله ﷺ ، أرغم بشر بن البراء ما فى فيه أى ألقى اللقمة من فيه فى التراب . ورغم فلان أنفه : خضع وأرغمه : حمله على ما لا يقدر أن يمتنع منه .

لسان العرب [١٢/٢٤٥-٢٤٦] .

(١) رواه أبو داود [١٦٦٨] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٤٦٧] .

(٢) أخرجه ابن ماجه [١٦٠٨] عن أسماء بنت عابس بن ربيعة، عن أبيها، عن علىٍّ ؛ قال : قال رسول الله ﷺ « إن السقط ليراغم ربه إذا أدخل أبويه النار. فيقال : أيها السقط المراغم ربه ! أدخل أبويك الجنة . فيجرهما بسرره حتى يدخلهما الجنة » . قال أبو على : يراغم ربه ، يغاضب . فى الزوائد : إسناده ضعيف ، لاتفاقهم على ضعف مندل بن على ، وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه [٣٥٣] .

والمستضعف فى أرض ما يجد من يضيق عليه حركته، لكنه عندما يهاجر فى سبيل اللّه سيجد سعة ورزقاً .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٠] ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان فى سبيل اللّه فقد لا يصل إلى المراغم؛ لأن الموت قد يأتيه، وهنا يقع أجره على الله. فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر فى سبيله بالمكان الذى يرغم أنف خصمه وذلك سبب، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذ نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾ أى : سقط أجره على اللّه . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض اللّه الواسعة، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم، فأنت تذهب إلى رحابى. والمراغم سبب من أسبابى وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : ﴿ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ ﴾ علينا أن نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النمل : ٨٢] .

الوقوع هنا هو السقوط، ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه، بل هو الذهاب إلى اللّه . ولماذا يستخدم الحق هنا ﴿ وَقَعَ ﴾ بمعنى « سقط » ؟

إنه سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو فى مكانه عند اللّه ، ونعلم من هذا أن الجزاء يعرف صاحبه جيداً ويعرف مكانه فيذهب إليه أين كان .

وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمانى ويتدارك ما فاته ؛ لأن اللّه يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه .

○○○

فضل السابقين الأولين
من المهاجرين والأنصار

يقول تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

و « السابق » هو الذى حصل منه الفعل - بصدد ما هو فيه - قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون؛ من آمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك الكل مؤمنون ، لكن هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد فى الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أى : كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى فى الذين سبقوا إلى الإيمان فى مكة ، وسبقوا إلى النصرة فى المدينة ، هؤلاء هم ﴿ وَالسَّابِقُونَ ﴾[1].

---

(١) قال القرطبى : فيه سبع مسائل :

الأولى : لما ذكر جل وعز أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم .

وقد اختلف فى عدد طبقاتهم وأصنافهم . ونحن نذكر من ذلك طرفًا نبين الغرض فيه إن شاء الله تعالى . وروى عمر بن الخطاب أنه قرأ « والأنصار » رفعًا عطفًا على السابقين. =

= قال الأخفش : الخفض فى الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهما . والأنصار اسم إسلامى . قيل لأنس بن مالك : أرأيت قول الناس لكم : الأنصار ، اسم سماكم الله به أم كنتم تدعون به فى الجاهلية؟ قال : بل اسم سمانا الله به فى القرآن ؛ ذكره أبو عمر فى الاستذكار .

الثانيـة : نص القرآن على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى القبلتين ؛ فى قول سعيد بن المسيب وطائفة . وفى قول أصحاب الشافعى هم الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وهى بيعة الحديبية ؛ قاله الشعبى . وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر . واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من المهاجرين الأولين من غير خلاف بينهم . وأما أفضلهم وهى :

الثالثـة : فقال أبو منصور البغدادى التميمى : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ، ثم البدريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

الرابعة : وأما أولهم إسلامًا فروى مجالد عن الشعبى قال : سألت ابن عباس من أول الناس إسلامًا ؟ قال أبو بكر ، أو ما سمعت قول حسان :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبى وأوفاها بما حملا
الثانى التالى المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

وذكر أبو الفرج بن الجوزى عن يوسف بن يعقوب بن الماجشون أنه قال : أدركت أبى وشيخنا محمد بن المنكدر وربيعة بن أبى عبد الرحمن وصالح بن كيسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأخنسى وهم لا يشكون أن أول القوم إسلامًا أبو بكر ؛ وهو قول ابن عباس وحسان وأسماء بنت أبى بكر ، وبه قال إبراهيم النخعى . وقيل : أول من أسلم على ؛ روى ذلك عن زيد بن أرقم وأبى ذر والمقداد وغيرهم . =

= قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافًا بين أصحاب التواريخ أن عليًا أولهم إسلامًا . وقيل : أول من أسلم زيد بن حارثة . وذكر معمر نحو ذلك عن الزهرى . وهو قول سليمان بن يسار وعروة ابن الزبير وعمران بن أبي أنس . وقيل : أول من أسلم خديجة أم المؤمنين ؛ روى ذلك من وجوه عن الزهري ،وهو قول قتادة ومحمد بن إسحاق بن يسار وجماعة ، وروى أيضًا عن ابن عباس . وادعى الثعلبى المفسر اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم بعدها . وكان إسحاق بن إبراهيم بن راهويه الحنظلى يجمع بين هذه الأخبار، فكان يقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال . والله أعلم .

وذكر محمد بن سعد قال : أخبرنى مصعب بن ثابت قال : حدثنى أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعًا أو خامسًا . قال الليث بن سعد : وحدثنى أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين . وروى أن عليًا أسلم ابن سبع سنين . وقيل : ابن عشر .

الخامسة : والمعروف عن طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله ﷺ فهو من أصحابه . قال البخارى فى صحيحه : من صحب النبى ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه . وروى عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد الصحابى إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنة أو سنتين ،وغزا معه غزوة أو غزوتين . وهذا القول إن صح عن سعيد بن المسيب يوجب ألا يعد من الصحابة جرير ابن عبد الله البجلى أو من شاركه فى فقد ظاهر ما اشترطه فيهم ممن لا نعرف خلافًا فى عدّه من الصحابة .

السادسة : لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق .

وقال ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان . وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدليل عليه قوله ﷺ فى الصحيح : « نحن الآخرون الأولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه =

= من بعدهم فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غداً والنصارى بعد غد »[1] . فأخبر النبى ﷺ أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والاستسلام لأمره والرضا بتكليفه والاحتمال لوظائفه ، لا نعترض عليه ولا نختار معه ، ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب ؛ وذلك بتوفيق الله لما قضاه وبتيسيره لما يرضاه ؛ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

السابعة : قال ابن خويز منداد : تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة ، فى علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك ، من العطاء فى المال والرتبة فى الإكرام . وفى هذه المسألة خلاف بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . واختلف العلماء فى تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم ؛ فروى عن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه كان لا يفضل بين الناس فى العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة . وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه . وكان عمر يفضل فى خلافته ؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقن أسفل الناس بأعلاهم ؛ فمات من ليلته . والخلافة إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قرأ عمر « والأنصار » رفعًا . « الذين » بإسقاط الواو نعتًا للأنصار ؛ فراجعه زيد ابن ثابت ، فسأل عمر أبي بن كعب فصدق زيدًا ؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد . فقال أُبَيّ : إنى أجد =

(١) أخرج البخارى [٨٩٦] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ؛ أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله ، فغدًا لليهود وبعد غد للنصارى » .

= مصداق ذلك في كتاب الله في أول سورة الجمعة : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ وفي سورة الحشر : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ وفي سورة الأنفال بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ فثبتت القرابة بالواو . وبين تعالى بقوله : « بإحسان » ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات ؛ إذ لم يكونوا معصومين رضي الله عنهم .

الثانية : واختلاف العلماء في التابعين ومراتبهم ؛ فقال الخطيب الحافظ : التابعي من صحب الصحابي ؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعي . وكلام الحاكم أبي عبد الله وغيره مشعر بأنه يكفي فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية . وقد قيل : إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحديبية ؛ كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مسلمة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكا إلى النبي ﷺ خالد بن الوليد ، فقال النبي ﷺ لخالد : « دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[1] .

ومن العجب عدُّ الحاكم أبو عبد الله النعمان وسويد ابني مقرّن المزني في التابعين عندما ذكر الإخوة من التابعين وهما صحابيان معروفان مذكوران في الصحابة ، وقد شهدا الخندق كما تقدم . والله أعلم . =

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [٢٥٤١] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبّه خالد فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » .

= وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم سعيد بن المسيب ، والقاسم ابن محمد ، وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار . وقد نظمهم بعض الأجلة في بيت واحد فقال :

فخذهم عبيد الله عروة قاسم   سعيد أبو بكر سليمان خارجه

وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ؛ فقيل له : فعلقمة والأسود . فقال : سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود . وعنه أيضاً أنه قال : أفضل التابعين قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق ؛ هؤلاء كانوا فضلين ومن علية التابعين . وقال أيضاً : كان عطاء مفتي مكة والحسن مفتي البصرة ، فهذان أكثر الناس عنهم رأيهم .

وروى عن أبي بكر بن أبي داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن ، وثالثتهما - وليست كهما - أم الدرداء .

وروى عن الحاكم أبي عبد الله قال : طبقة تعد في التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة ؛ منهم إبراهيم بن سويد النخعي وليس بإبراهيم بن يزيد النخعي الفقيه . وبكير بن أبي السميط ، وبكير بن عبد الله الأشج . وذكر غيرهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس في أتباع التابعين ، وقد لقوا الصحابة منهم أبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، لقي عبد الله بن عمر وأنساً . وهشام بن عروة ، وقد أدخل على عبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله وموسى بن عقبة ، وقد أدرك أنس بن مالك وأم خالد بنت خالد بن سعيد . وفي التابعين طبقة تسمى بالمخضرمين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله ﷺ وأسلموا ولا صحبة لهم . واحدهم مخضرم « بفتح الراء » كأنه خضرم ، أي قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها .

وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفسًا ، منهم أبو عمرو الشيباني ، وسويد بن غفلة الكندي ، وعمرو بن ميمون الأودي ، وأبو عثمان النهدي وعبد خير بن يزيد =

وفى سورة الواقعة يقول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾ [الواقعة] .

ثم يأتى من بعدهم فى الرتبة : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾

ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى هؤلاء فيقول : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝ ﴾ [الواقعة] .

ولذلك حينما يأتى من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد ﷺ تأخر عن عصر محمد ﷺ أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله ﷺ سينالون مرتبة رفيعة[1].

= الخيرانى « بفتح الخاء » : بطن من همدان ، وعبد الرحمن بن مل . وأبو الجلال العتكى ربيعة بن زرارة. وممن لم يذكره مسلم ؛ منهم أبو مسلم الخولانى عبد الله ابن ثوب ، والأحنف بن قيس . فهذه نبذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن الكريم ، رضوان الله عليهم أجمعين . وكفانا نحن قوله جل وعز : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] على ما تقدم . وقوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقال رسول الله ﷺ : « وددت أنا لو رأينا إخواننا »[1] . الحديث . فجعلنا إخوانه ؛ إن اتقينا الله واقتفينا آثاره حشرنا الله فى زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله . تفسير القرطبى [٨/٢٣٥-٢٤٠] .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه [١٢/٢٨٣٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من أشد أمتى لى حبا ، ناس يكونون بعدى يود أحدهم لو رآنى بأهله وماله » . =

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه [٣٩/٢٤٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : « وددت أنا قد رأينا إخواننا » . فقال أصحاب النبى ﷺ : أولسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابى ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد »[1].

ولكن من هم السابقون المقصودون فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ نعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة فى الإسلام ، مع أنهم خرجوا من الدينة ، لا ليشهدوا حرباً ،

= وأخرج أحمد فى المسند [٣/١٥٥] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « طوبى لمن آمن بى ورآنى مرة ، وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى سبع مرار » . وقال الأرناؤوط فى المسند [١٢٥٧٨] : حسن لغيره . والحديث أخرجه ابن حبان فى صحيحه [٧٢٣٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وحسنه الأرناؤط .

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٩/٢٤٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بلفظ : أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وإنا إن شاء الله ، بكم لاحقون وددت أنا قد رأينا إخواننا »

قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟

قال : « أنتم أصحابى ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد » .

فقالوا : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟

فقال : « أرأيت لو أن رجلاً له خيل غرٌ محجلة ، بين ظهرى خيل دهم بهم ألا يعرف خيله ؟ »

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : « فإنهم يأتون غرًا محجلين من الوضوء . وأنا فرطهم على الحوض . ألا ليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال . أناديهم : ألا هلم ! فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك . فأقول : سحقاً سحقاً » .

ولكن ليعترضوا عيراً لقريش تحمل بضائع، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التى ضمت العير والحراس والرعاة ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من مكة، وهم صناديد قريش وهكذا كانت منزلة أهل بدر، أنهم سبقوا إلى الجهاد فى أول معركة للإسلام[1].

ولذلك حين حاول حاطب بن أبى بلتعة أن يخبر ناسًا من المشركين من أهل مكة ببعض أمر رسول الله ﷺ أخبر الله نبيه ﷺ ، فقال النبى ﷺ لعلى رضى الله عنه ومن معه ائتوا إلى مكان اسمه « روضة خاخ » فى الطريق بين مكة والمدينة ، فستجدون فيه جارية معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته فى عقيصتها.

فلما ذهب على ومن معه رضى الله تعالى عنهم يبحثون عن المرأة فى الموضع الذى ذكره لهم رسول الله ﷺ ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ؛ فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجدوه من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من مشركى قريش . وعادوا به إلى النبى ﷺ ، فأحضر النبى ﷺ حاطباً ، وقال له : ما حملك على هذا ياحاطب ؟

قال له : يا رسول الله : أنا لصيق بقريش ولى فيها أهل ومال ، وليس لى بها عزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً عند قريش يعرفونها لي ؛ فيحافظوا على أهلى وعلى مالي ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعنى ولا يضرك ،

قال : صدقت .

(1) انظر كتاب غزوات الرسول ﷺ لفضيلة الشيخ الإمام – غزوة بدر – وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي .

وأراد عمر رضى الله تعالى عنه أن ينزل عليه بسيفه ، فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[1].

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عدة، وبدون استعداد، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم، وقد غفرت لكم كل ما تفعلونه من السيئات .

(1) اللصيق قال سفيان : كان حليفاً لهم ولم يكن من أنفسها .
والحديث أخرجه البخارى [٧٠٠٣] عن عبد الله بن أبى رافع قال : سمعت علياً رضى الله تعالى عنه يقول : « بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها » . فانطلقنا تعادى بنا خيلُنا ، حتى انتهينا إلى الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : أخرجى الكتاب . فقالت : ما معى من كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب ، أو لنلقين الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه :
من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا ؟ » قال : يا رسول الله لا تعجل على ، إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « قد صدقكم » . فقال عمر : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق . قال : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وأخرجه مسلم [٤٩٤٢/ ١٦] .
و « روضة خاخ » مكان بين مكة والمدينة بالقرب من المدينة .
و « عقاصها » أي : شعرها المضفور جمع عقيصة .

إذن .. فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدوا مع رسول الله ﷺ عن العمرة ، ثم عقد النبي ﷺ مع القرشيين المعاهدة .

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبي في مكة، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان والعهد ، وكانوا اثنى عشر في بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين في العقبة الثانية[1]. هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ أى : من يأتى من بعدهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢]

الفئة الأولى في هذه الآية هم : المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

والفئة الثانية هم : الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ ﴾ .

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ .

وبعض من العلماء فسر هذه الآية : على أنها تشمل الالتحام الكامل ، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضاً أولاً إلى أن نزلت آية الميراث وهي قول الله تعالى : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال : ٧٥] فألغت ذلك التوارث الذى كان بينهم .

(١) انظر بيعة العقبة الأولى والثانية من كتابنا هذا .

وبعض العلماء قال : إن الولاية هي النصرة ، وهي المودة ، وهي التمجيد ، وهي الإكبار ، فقالوا : هذه صفات الولاية ، قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذى قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان .

وعندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم في مكة، كان الأنصاريّ يجيء للمهاجر ويقول له : انظر إلى نسائى والتى تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها. هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل، وحين يصنعها الإيمان ، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة بمن هو محروم من المرأة.

وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم: فالطائفة الأولى : المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذى ألفوه، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكسبونه وينفقوا منه أيضاً على الجهاد في سبيل الله؛ مع أنهم تركوا أموالهم ، كل ما يملكون في مكة، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس . ودخلوا وهم قلة في معركة مع الكثرة المشركة، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة.

إذن .. فهم آمنوا ، هذه واحدة ، وهاجروا ، وهذه الثانية ، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة ، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة ، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا ، ولذلك فلهم أجر

من سن سنة حسنة ، ولهم أجر من عمل بها، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل[1].

والطائفة الثانية : الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة ، ونصروا هذه الثانية ، وأحبوا من هاجر إليهم ، هذه الثالثة . وهؤلاء جمعهم الله فى الولاية أى النصرة والمودة والتعظيم والإكبار .

(١) عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، فعُمل بها بعده ، كتب له مثل أجر من عمل بها . ولا ينقص من أجورهم شيء . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، فعُمل بها بعده ، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء » . أخرجه مسلم[١٠١٧/١٥]

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .

أخرجه مسلم [٢٦٧٤/١٦] .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] [الأنفال : ٧٤] .

(١) قال البيضاوى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ﴾ هم المهاجرون هجروا أوطانهم حباً لله ولرسوله . ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ﴾ نصرفوها فى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج . ﴿ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بمباشرة القتال . ﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم . ﴿ أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ أو بالنصرة والمظاهرة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ . أى من توليهم فى الميراث ، وقرأ حمزة « ولايتهم » بالكسر تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة كأنه بتوليه صاحبه يزاول عملاً . ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين . ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى الميرث أو المؤازرة ، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين . ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم لبعض حتى فى التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ . تحصل فتنة فيها عظيمة ، وهى ضعف الإيمان وظهور الكفر . ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ فى الدين وقرئ « كثير » . ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة =

إن قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] . قد أعطانا الحكم الشرعى فى ولاية بعضهم لبعض . وأوضح أن هؤلاء لا بد أن يكونوا أولياء ، وهذا هو الحكم المطلوب منهم ، ولكنه سبحانه فى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها، وإنما قال سبحانه وتعالى : ﴿ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وهذا حصر يسمونه قصراً ، أى أن غيرهم لا يكون مؤمنًا حقًا ، مثلما تقول : فلان هو الرجل، يعنى أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها . وهذه مبالغة إيمانية .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الجزاء . والجزاء إما أن يكون فى الدنيا ، وذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقًا ، وإما أن يكون الجزاء فى الآخرة . وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله تعالى : ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أى : تمحى سيئاتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى تضاعف لهم الحسنات فى الجنة .

فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية، وهو حكم مطلوب منهم . والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم فى الدنيا والآخرة . والجزاء

= الحق ، ووعد لهم الموعد الكريم فقال . ﴿ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تبعة له ولا منة فيه ، ثم ألحق بهم فى الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .

تفسير البيضاوى [١/٢٩٣ : ٣٩٢] .

فى الدنيا أنهم هم المؤمنون حقًا ، أما الجزاء فى الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا . ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب ؛ وهو رزق كريم .

والمغفرة لهم على قليل الذنوب ؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة فى شئ من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع فى المعاصي ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم فى هذه الآية النزوات الصغيرة ، ولهم رزق كريم أيضاً . والرزق هو ما انتفع به الإنسان ، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس ، ولكن الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة ؛ منها ما هو مادى وما هو معنوي .

فالاستقامة رزق، والفضيلة رزق، والعلم رزق، والتقوى رزق، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل. وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم. والكرم هو مجموع الأشياء التى فيها محاسن. وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً. فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء، والطعام رزق لك فيه عمل قليل، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر.

إذن.. فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق فى قمة الكرم، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل. وأنت حين تعطى إنساناً أجره ليس هذا منّا أو كرمًا منك لأنه مقابل عمل، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل. ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك .

إذن .. فهو رزق فى قمة الكرم ، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق ، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا

مكانه ؛ لأنك قد تبذل جهداً كبيراً فى زراعة أرضك ثم تأتى آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً . وقد تذهب إلى مكان وأنت خالى الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير .

إذن .. فالرزق يعرف مكانك ويأتى إليك ولكنك لا تعرف أين هو وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده ، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك ، وأنت قد تأكل طعاماً تشتهيه ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه ، ويأتى طائر ليلتقط بعضه ؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت. وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات فى دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك .

إذن.. فهذا الطعام الذى أكلته وتحول إلى دم فى جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم .

ويقول ربنا تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [النحل : ١١٢] .

فالرزق يأتيك ولا تذهب أنت إليه، وإذا كان الرزق قد ربط فى الدنيا بأسباب العمل، فالرزق فى الآخرة يأتيك بلا عمل.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

إذن .. فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم. هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوّليًا إلى الله ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً فى أشياء ومختاراً فى أشياء يفعلها

أو لا يفعلها ، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له ؛ فيفعل إذا قال له : « افعل » ، ولا يفعل إذا قال له : « لا تفعل » ، وهو بهذا يكون قد اختار أمر الله وحكمه وآثره على أمر غيره رغبة منه إليه سبحانه وطمعاً فى مرضاته ورحمته .

إن معنى الإيمان أن يستقر فى قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون ، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أُعد لنا إعداداً جيداً ، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار فى أشياء، وجعلنا من رحمته مقهورين فى أشياء .

مثلاً دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك، ولكن الأفعال التى تصدر منك بعد فكر، تلك هى الأفعال التى جعل الله لك فيها اختياراً. ولو أرادك الخالق سبحانه أن تكون مقهورًا لفعل ، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل ؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ليبتلى عباده فيحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إذن .. فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان ، وللإنسان انتماءات أخرى ؛ ينتمى لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله ، ولكنها كلها دائرة فى فلك الإيمان ولذا يجب أن يكون الانتماء الأول لله تعالى ، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهليهم إذا كان الإيمان يقتضى ذلك . والإنسان المؤمن هو الذى يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل ويجعل كل ما يملكه فى خدمة ذلك ؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك ، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك . إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله . فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا ، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حبًا فى الله تعالى وطاعة له سبحانه .

فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم فى إيواء المهاجرين ونصرتهم حبًا لله تعالى وطاعة له سبحانه .

أما الفئة الثانية : فهناك نقص فى إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

أى ليس مطلوباً أن توالوهم ، لكن إذا استنصروكم فى الدين فعليكم النصر، لماذا ؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل .

والفئة الثالثة : هم الذين جاءوا من بعد ذلك ، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تامًا يكون كالمؤمنين الأوائل ؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى . وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [الأنفال : ٧٥] .

ooo

عرض النبى ﷺ نفسه على القبائل

بعد موت أبى طالب ، عم النبى ﷺ، والسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها اشتد أذى الكفار لرسول الله ﷺ والذين آمنوا معه . فكان ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم ؛ بغية أن يجد من ينصره ويحميه ؛ حتى يبلغ رسالة ربه سبحانه وتعالى ، وورد أنه ﷺ كان يقول : « يا بنى فلان ؛ إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصدقونى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به »[1].

(١) قال الحافظ فى الفتح : ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبى ﷺ كان بعد موت أبى طالب قد خرج إلى ثقيف بالطائف يدعوهم إلى نصره ، فلما امتنعوا منه رجع إلى مكة فكان يعرض نفسه على قبائل العرب فى مواسم الحج[1].

وذكر بأسانيد متفرقة أنه أتى كندة وبنى كعب وبنى حذيفة وبنى عامر بن صعصعة وغيرهم ، فلم يجبه أحد منهم إلى ما سأل[2] .

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : « فكان فى تلك السنين - أى التى قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحدًا منكم على شىء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذينى حتى أبلغ رسالة ربى ، فلا يقبله أحد ، بل يقولون : قوم الرجل أعلم به » .

وأخرج البيهقى ، وأصله عند أحمد ، وصححه ابن حبان من حديث ربيعة بن عِبَاد - بكسر المهملة وتخفيف الموحدة - قال : « رأيت رسول الله ﷺ بسوق =

(١) انظر السيرة لابن هشام [٣٦/٢] .
(٢) انظر السيرة لابن هشام [٣٦/٢-٤٦] .

= ذى المجاز يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم إلى اللّٰه عز وجل » الحديث[1] وروى أحمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث جابر « كان رسول اللّٰه يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : هل من رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشًا منعونى أن أبلغ كلام ربى . فأتاه رجل من همدان فأجابه ، ثم خشى أن لا يتبعه قومه فجاء إليه فقال : آتى قومى فأخبرهم ثم آتيك من العام المقبل . قال : نعم : فانطلق الرجل وجاء وفد الأنصار فى رجب »[2].

وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقى فى « الدلائل » بإسناد حسن عن ابن عباس « حدثنى على بن أبى طالب قال : لما أمر لله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى ، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نسابًا فقال : من القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . قال : من أى ربيعة أنتم ؟ قالوا : من ذهل - ذكروا حديثًا طويلاً فى مراجعتهم وتوقفهم أخيرًا عن الإجابة - قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين سماهم رسول اللّٰه ﷺ الأنصار لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره ، قال : فما نهضوا حتى بايعوا رسول اللّٰه ﷺ[3] . انتهى .

فتح البارى [٧/٦٢٣:٦٢٤] . =

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل [٥/٣٨] ، وأحمد فى المسند [٣/٤٩٢] ، والطبرانى فى الكبير [٥/٤٥٨٤] ، والحاكم فى المستدرك [١/١٥] . وذكره الهيثمى فى المجمع [٦/٢٤] وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٣/٣٩٠] ، والترمذى [٢٩٢٥] مختصرا ، وقال : حديث غريب صحيح وأبو داود [٤٧٣٤] ، وابن ماجه [٢٠١] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٣٣٥] وانظر الصحيحة [١٩٤٧] .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة [٢/٤٢٢-٤٢٧] .

= وذكر الدكتور أكرم العمرى : لم يدع رسول اللّٰه ﷺ فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة - تفوته ، وخاصة فى موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة ، قال ربيعة ابن عباد الدؤلى - وهو شاهد عيان : « رأيت رسول اللّٰه ﷺ بذى المجاز يتبع الناس فى منازلهم يدعوهم إلى اللّٰه عز وجل ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول : « أيها الناس ، لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم .

قلت : من هو ؟

قالوا : هذا أبو لهب »[1] .

ومما خاطب به الناس فى ذى المجاز : « يأيها الناس ، قولوا لا إله إلا اللّٰه تفلحوا »[2] وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئًا ، وهو لا يسكت بل يكرر =

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٣/٤٩٢] بلفظ : رأيت رسول اللّٰه ﷺ وهو يدعو الناس إلى الإسلام بذى المجاز وخلفه ؟ رجل أحول يقول : لا يغلبنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم . قلت لأبى وأنا غلام : من هذا الأحول الذى يمشى خلفه ؟ قال : هذا عمه أبو لهب . وأخرج الطبرانى فى الكبير [٥/٤٥٨٤]، والحاكم فى المستدرك [١/١٥] بلفظ : رأيت رسول اللّٰه ﷺ بمنى فى منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول : « يأيها الناس، إن اللّٰه يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا » قال : ووراءه رجل يقول : يأيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، فسألت : من هذا الرجل ؟ قيل :أبو لهب . وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٤/٣٤١] عن ربيعة بن عباد بلفظ : رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يأيها الناس قولوا لا إله إلا اللّٰه تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابىء كاذب يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فذكروا لى نسب رسول اللّٰه ﷺ وقالوا لى : هذا عمه أبو لهب .

وأخرجه الحاكم فى المستدرك [١/١٥] ، والطبرانى فى الكبير بنحوه والأوسط باختصار بأسانيد . وأحد أسانيد عبد اللّٰه بن أحمد ثقات .

= دعوتهم ، وأبو لهب يصيح : إنه صابئ كاذب يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى[1].

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في الموقف : هل من رجل يحملني إلى قومه ؛ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل ؟ فأتاه رجل من همدان فقال : من أنت ؟ فقال الرجل : من همدان .

قال : فهل عند قومك من منعة ؟

قال : نعم .

ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه . فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ، ثم آتيك من عام قابل .

قال : نعم .

فانطلق . وجاء وفد الأنصار في رجب[2]. =

(١) أخرجه في المسند [٦٣/٤] وذكره الهيثمي في المجمع [٢٥،٢٤/٦] وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : « هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل » فأتاه رجل من همدان فقال : « ممن أنت » فقال الرجل : من همدان ، قال : « فهل عند قومك من منعة ؟ » قال : نعم . ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل . قال : « نعم » فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب .
وأخرجه أحمد في المسند [٣٩٠،٣] واللفظ له . والترمذي [٢٩٢٥] مختصرًا وقال : حديث غريب صحيح ،والحاكم في المستدرك [٦١٣،٦١٢/٢] وصححه ، ووافقه الذهبي . وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٣٣٥] .

= وهذا يدل على أن الحادثة في العام الحادي عشر من البعثة ؛ فإن الأنصار قدموا في العام الحادي عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى ، ثم في العام الثاني عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية . ثم كانت الهجرة إلى المدينة .

الاتصال بالأنصار ودعوتهم :

يذكر جابر بن عبد الله الأنصاري : « مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول : « من يؤويني ؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة ؟ » حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون : احذر غلام قريش لايفتنك ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام[1].

وكانت الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة فقد « قدم سويد ابن الصامت الأنصاري مكة حاجًا أو معتمرًا فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ؟

فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معك ؟ .

قال : مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان .

فقال له رسول الله ﷺ : « اعرضها علي » ، فعرضها عليه . فقال له : « إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله تعالى عليَّ ، وهو هدى ونور » ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعه إلى الإسلام . فلم يبعد منه وقال : =

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند [٣٤٠،٣٣٩،٣٢٢/٣] واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه [٦٢٧٤] ، والحاكم في المستدرك [٦٢٥،٦٢٤/٢] وصححه ، ووافقه الذهبي. وذكره ابن حجر في الفتح [٦٢٧/٧] وقال: وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم وابن حبان من حديث جابر ... وذكر الحديث .

إن هذا القول حسن . ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بُعاث[1] . وعلى أية حال فلا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه .

وقبل يوم بعاث بيسير - وهو اليوم الذى جرت فيه وقعة بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس بعد قتل الكثير من الطرفين وفيهم من أكابرهم ، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين - سعى الأوس لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عددًا ، فقدم أبو الحيسر أنس بن نافع فى وفد من بنى عبد الأشهل لهذا الغرض ، فسمع بهم الرسول ﷺ ، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال أحدهم - وهو إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا - : أى قوم ؛ هذا والله خير مما جئتم له . فانتهره أبو الحيسر فصمت ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، ورجعوا إلى المدينة ، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعاث ، ثم مات إياس بن معاذ ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلمًا ، فقد استشعر الإسلام فى لقائه مع رسول الله ﷺ فى ذلك المجلس[2] .

وإذا كان الرجلان من الأوس اللذان استشعرا الإسلام فلم تذكر المصادر قيامهما بالدعوة فى وسط قومهما ، فإن البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد الخزرج فى موسم الحج عند عقبة منى . =

(١) انظر السيرة لابن هشام [٤٣،٤١/٢] ، والبيهقى فى الدلائل [٤١٩/٢] ، وابن كثير فى البداية والنهاية [١٤٧/٣] .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٤٢٧/٥] ، والطبرانى فى الكبير [٨٠٥/١] ، والحاكم فى المستدرك [١٨١،١٨/٣] ، وصححه ، قال الذهبى : مرسل. وذكره الهيثمى فى المجمع [٣٩/٦] وقال : رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات .

= قال لهم رسول الله ﷺ : « من أنتم ؟ » .

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : « أمن موالى يهود؟ » .

قالوا : نعم .

قال : « أفلا تجلسون أكلمكم؟ » .

قالوا : بلى فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[1].

وذكر ابن إسحاق إسلامهم وقيامهم بالدعوة فى المدينة[2] ولعل استشعار الأنصار لحاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التى خلفتها وقعة بعاث قبل سنتين فقط من هذا اللقاء ، لعل ذلك كان سببًا هيأه الله تعالى لإسلامهم ؛ وكذلك فإن مقتل رؤسائهم فى بعاث خفف من التزاحم على الزعامة والأنفة من الدخول فى الإسلام خوف فقدان السلطان والزعامة ، وكذلك فإن الأنصار كانوا يجاورون يهود ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يعرفون قضايا الوحى والنبوة والبعث والجنة والنار فلا شك أن أذهانهم كانت مهيئة لفهم الإسلام أكثر من سواهم .

السيرة النبوية الصحيحة [١/١٩٣-١٩٦] .

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [٤٥/٢] ، والبيهقى فى الدلائل [٤٢٤،٤٢٢/٢] ، وابن كثير فى البداية والنهاية [١٤٩،١٤٨/٣] .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة [٤٧/٢] .

بيعة لعقبة الأولى

أثناء عرض النبي ﷺ على قبائل العرب في المواسم لقيه نفر من الخزرج أراد ﷺ بهم خيراً ، فلما طلب منهم رسول الله ﷺ أن يجلسوا ليكلمهم استجابوا له ﷺ ، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، وكان هؤلاء النفر يعلمون من اليهود المجاورين لهم في المدينة أن نبيًا قد أظل زمانه وهو مبعوث الآن، وكان اليهود عليهم لعنة الله يتوعدونهم بأن يقتلوهم قتل عاد وإرم ، فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له جعل هؤلاء النفر يستجيبون لدعوته ﷺ فقال بعضهم : يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقكم إليه، فصدقوه. وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام وانقلبوا إلى قومهم يدعونهم ويبشرونهم فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم ما كان من أمر رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى، فبايعو رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض عليهم الحرب(1).

(1) قد جرت بيعة العقبة الأولى في العام التالي على لقاء وفد الخزرج ، حيث حضر اثنا عشر رجلاً ؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى ، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال من الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام . =

....

= إن مصدر المعلومات الصحيحة الرئيسي عن بيعة العقبة الأولى هو عبادة بن الصامت الخزرجي - وهو شاهد عيان مشارك بالبيعة - وقد جاءت روايته في الصحيحين وسيرة ابن إسحاق ، لكنها عند ابن إسحاق أوضح وأكمل ونصها كما يلي : قال عبادة بن الصامت : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء - وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب - : على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب »(1). والمقصود أنهم بايعوا على وفق بيعة النساء التي نزلت بها الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ [الممتحنة : ١٢] بعد صلح الحديبية(2) ؛ حيث لم يرد في بيعة العقبة الأولى ذكر القتال .

ومعنى ذلك أن عبادة حدّث بهذا النص بعد نزول الآية فشبه بيعة العقبة الأولى بيعة النساء . ويلاحظ أن نص البيعة يكل معاقبة الجرائم إلى الله تعالى في الآخرة ؛ لعدم تشريع الحدود الإسلامية مما يؤكد قدم النص وأنه يخص بيعة العقبة الأولى . =

(1) ذكره ابن هشام في السيرة [٢/٤٩] .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال - وحوله عصابة من أصحابه : « تعالوا بايعوني على ألّا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه» قال : فبايعناه على ذلك »

أخرجه البخاري [٣٨٩٢] واللفظ له، ومسلم [١٧٠٩/٤١] .

(2) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح [١/٩٥] .

= ولما أثمرت بيعة العقبة الأولى ، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين . فقام بمهمته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام ، ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية[1] .

السيرة النبوية الصحيحة [١/١٩٨،١٩٧] .

(١) انظر سيرة ابن هشام [٢/٥٠] ، والبيهقي في الدلائل [٢/٤٣٧] .

بيعة العقبة الثانية

لما انتشر الإسلام في المدينة – خاصة وأن نفراً من أهل مكة قد هاجروا إليها ، وعاشوا في طمأنينة وسلام بين إخوانهم المسلمين الجدد – قال الأنصار إلى متى نترك رسول الله ﷺ ومن معه من إخواننا يكابدون المشقة والأذى فأرسلوا له ﷺ في موسم الحج سبعين رجلاً وتواعدوا شعب العقبة وبايعوه على السمع والطاعة ، وأن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان ممن حضر هذه البيعة مع رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب ، وكانت هذه البيعة تسمى بيعة الحرب[1] .

(١) لما انتشر الإسلام في المدينة ، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار ، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يلاقي عنت قريش وأذاها الذي كان يشتد على مر الأيام ، قدم وفد الأنصار في موسم الحج فبايعوا بيعة العقبة الثانية .

قال جابر بن عبد الله الأنصاري : « قلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا : يا رسول الله ، نبايعك .

قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » .

قال : فقمنا إليه فبايعناه . وأخذ بيده أسعد بن زرارة – وهو من أصغرهم – فقال : رويدًا يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . =

= فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة ، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله .

قالوا : أمط عنا يا أسعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ولا نسلبها .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة ، وقد نظر العباس في وجوه وفد الأنصار ثم قال : هؤلاء قوم لا أعرفهم ، هؤلاء أحدث مما يدل على غلبة الشباب على الوفد[1] .

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب ، لذلك سماها عبادة ابن الصامت بيعة الحرب[2] .

وتقدم رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري – وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية – تفاصيل مهمة ؛ قال : « خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا .. ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق .. وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا .. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو ، =

(١) أخرجه أحمد في المسند [٣/٣٢٢،٣٢٣] واللفظ له ، والحاكم في المستدرك [٢/٦٢٤-٦٢٥] وصححه ، ووافقه الذهبي . وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح [٧/٦٢٧] وقال : وعند أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم .. وذكر الحديث .

(٢) عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوا في العقبة الأولى على بيعة النساء في السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، ولا ننازع في الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيثما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

أخرجه أحمد في المسند [٥/٣١٦] .

= فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب – وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له – فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فبين أن الرسول ﷺ في منعة من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة ، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه . فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله ، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط . فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله . فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابرًا عن كابر ، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلًا : يا رسول الله ، إن بيننا وبين القوم حبالًا وإنا قاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم بالدم والهدم بالهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

ثم قال : « أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيبًا ؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس » .

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم ، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرًا قريشًا ، فقال العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ؛ إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا .

فقال رسول الله ﷺ : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

فرجعوا إلى رحالهم ، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش ، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة ، فحلف المشركون من الخزرج =

= والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[1] .

وهكذا عبرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبى ﷺ إليهم بتلهف كبير .

السيرة النبوية الصحيحة [١/١٩٨-٢٠١] .

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٣/٤٦١-٤٦٢] واللفظ له ، والطبرانى فى الكبير [١٩/١٧٤] وذكره الهيثمى فى المجمع [٨/٤٥-٤٨] وقال : رواه أحمد والطبرانى بنحوه ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير ابن إسحاق وقد صرّح بالسماع .
وانظر السيرة لابن هشام [٢/٦٤،٦٥] ، والبيهقى فى الدلائل [٢/٤٤٨] .

من أسباب الهجرة

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] [الإسراء : ٧٦] يستفز أى يستخف ، فهو من الخفة ، مثلما تقول لابنك المتثاقل عن القيام : فز ، أى انهض بسرعة وخفة[2] . والأرض : المقصود بها مكة . والنبى ﷺ كان

(١) قال ابن كثير : قيل : نزلت فى كفار قريش ؛ هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ؛ فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا ، وكذلك وقع ؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ [الإسراء : ٧٧] .
وعن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : همَّ أهل مكة بإخراج النبى ﷺ من مكة وقد فعلوا بعد ذلك ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، ولم يلبثوا بعده إلا قليلًا حتى أهلكهم الله يوم بدر ، وكذلك كانت سنة الله تعالى فى الرسل عليهم الصلاة والسلام إذا فعل بهم قومهم مثل ذلك .
ذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره [١٣٣٥٧] ، والسيوطى فى الدر المنثور [٥/٣٢٠] .

(٢) قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم : فَزَّ عن الشيء : أسرع منصرفًا عنه . واستفزه : طارده وأخرجه من مستقره ، قال تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أى : يطردونك منها ويخرجونك منها .
وقال تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ [الإسراء : ٦٤] . أى : خوِّفهم وطاردهم واجعلهم ينصرفون عن الحق .
القاموس القويم [٢/٨٠/٨١] .

يحب مكة ولكن الكافرين بلغوا فى إيذائه ومحاربته حتى يكره الإقامة بها [1] ، ويخرج منها ؛ لأنهم يظنون أنه إذا خرج من مكة ستنتهى دعوته ؛ لأنهم كانوا يرون أن أنصاره وأتباعه فى مكة ، فإذا تركها خسر الأتباع والمناصرين ولذلك يطمئن الحق سبحانه رسوله ﷺ أنه حتى لو خرج من مكة فلن يلبثوا بعده إلا قليلاً . فهم يؤذون الرسول ﷺ ليخرج ، ولكن الخروج لا يكون إلا بأمر الله تعالى . فالله سيتركهم حتى يمكروا ويبيتوا لقتل الرسول ﷺ ، ثم يبطل سبحانه مكيدتهم وتآمرهم وينجيه بقدرته وعظمته ﷺ من مكرهم .

وذلك لأن الحق سبحانه وتعالى أخبر القوم المعادين لرسول الله ﷺ أنهم لن يظفروا به بأى شكل من الأشكال ، فلن يقدروا عليه لا بالمواجهة ولا بالتبييت والمكر . حتى لو استعانوا بالجن فى الكيد للرسول ﷺ أو محاولة النيل منه ، فإن الله تعالى سينجيه .

فكأنه سبحانه يقول لهم : لا سبيل لمحاربة هذا الدين ؛ لأنكم لن تستطيعوا أن تغلبوا عليه لا جهارًا ولا تبييتًا ، وحتى لو استعنتم بالجن الأقوى منكم ، فلن تقفوا فى وجه هذه الدعوة ؛ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فالمراد هنا وإن كادوا ليجعلونك تخف

(١) عن عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال : رأيت رسول الله ﷺ واقفًا على الحَزْوَرَة فقال : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت » . أخرجه أحمد فى المسند [٤/٣٠٥] ، والترمذى [٣٩٢٥] ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه [٣١٠٨] ، والحاكم فى المستدرك [٣/٤٣١] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٣٠٨٢] .

إلى الخروج من مكة ليخرجوك منها . ولو حدث ذلك فلن يلبثوا خلافك إلا قليلاً [1] . وصدق الحق سبحانه فيما أخبر به رسوله ﷺ ، فبعد عام من الهجرة حدثت موقعة بدر وانتصر المسلمون انتصارًا كبيرًا ، وقتلوا سبعين من

(١) قال مجاهد وقتادة والحسن : نزلت هذه الآية فى همّ أهل مكة بإخراجه ﷺ من أم القرى ، ولو أخرجوه منها لما أمهلوا ، ولكن الله أمره بالخروج فخرج .
والمعنى : قارب أهل مكة أن يزعجوك بعداوتهم وشدة إيذائهم ؛ ليخرجوك من الأرض الطيبة أرض مكة قبل أن يأذن الله لك بالهجرة .
ولو حققوا ما هموا به بإكراهك على الخروج ؛ لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا زمنًا قليلًا ، يستأصلون ويهلكون جميعًا بعده .
والواقع أنه ﷺ لم يخرج من مكة بإكراه قريش له - وإن كانوا قد هموا به - بل كان خروجه بأمر ربه حين أذن له فى الهجرة ؛ حفاظًا على الدعوة وتمكينًا لها من المضى فى طريقها لأداء مهمتها السامية فى جو من الأمن والاستقرار ، وليسلم منهم ومن أعقابهم من يسلم ، فأذن لرسوله بالهجرة ، فخرج بإذنه لا بإخراج قريش وقهرهم .
وأسند الإخراج إليهم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٣] .
وفى قوله ﷺ : « أو مخرجى هم »[1] ، وفى قول ورقة بن نوفل : ليتنى كنت جذعًا إذ يخرجك قومك . أسند الإخراج إليهم لهمهم به ومزاولة مقدماته باستفزازهم له ولأصحابه .
[تفسير الوسيط] .

(١) أخرجه البخارى [٣] من حديث عائشة أم المؤمنين ، رضى الله تعالى عنها ، حيث جاء فيه : فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزّل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعًا ، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مخرجىّ هم ؟ » . قال : نعم ... الحديث .

صناديد قريش ، وأسروا سبعين آخرين . فلم يتمتع المشركون بمكة بعد خروج الرسول وأصحابه منها . لم يتمتعوا بالأرض ولا بالنعيم ولا بالسيادة التى كانوا فيها .

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] أى لماذا لم يعتبر هؤلاء القوم بما حدث للأمم السابقة الذين كذبوا رسل الله وآذوهم ، فكانت عاقبتهم البوار والخسران . والسُّنَّةُ هى العادة التى لا تتغير . وسُنَّةُ الله لا يستطيع أن يحولها أحد(١) .

(١) قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ أى سَنَنَّا سنة فى أمم المرسلين قبلك ، وهى أن تعذب كل أمة كفرت برسولها وآذته ، وجعلته يخرج من بين أظهرها ، وذلك بإهلاكها بحيث لا تلبث بعده إلا قليلًا حتى يحيق بها الدمار والنكال ، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاء قومه والذين كفروا به بعذاب من عند الله لا قبل لهم به فى الدنيا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . وإسناد السنة إلى الرسل مع أنها لله جل شأنه ؛ لأنها سُنَّت لأجلهم .
وقوله : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أى : لا خُلْفَ فى وعدها ، ولا تغير فى وقتها ونوعها .

[التفسير الوسيط] .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾(١) [الأنفال : ٣٠] .

إن هذه الآية حيثية لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] ؛ ولذلك إياكم أن تلتفتوا إلى ما تعطيه الخيانة لكم من مغانم الدنيا ؛ لأن الله عنده المغانم العظيمة فى الدنيا والآخرة . وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينبه الصحابة والمسلمين إلى ذلك قال : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

(١) عن ابن عباس : فى قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ قال : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ، يريدون النبى ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك ، فبات علىّ على فراش النبى ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًا ، يحسبونه النبى ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليًا رد الله مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال . أخرجه أحمد فى المسند [٣٤٨/١] ، وقال الشيخ شاكر [٣٢١٥] : فى إسناده نظر من أجل عثمان الجزرى . وأخرجه الطبرانى فى الكبير [١٢١٥٥/١١] ، وقال الهيثمى فى المجمع [٣٠/٧] : رواه أحمد والطبرانى ، وفيه عثمان الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح .

تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] [الأنفال] ،
أما بالنسبة لرسول الله ﷺ فلم يقل : اذكر . لماذا ؟ لأن رسول الله ﷺ هو الذى يُذكِّر الناس بفضل الله عليهم ، فلا يعقل أن يكون هو المذكَّر ، ويُطلب منه أن يَذكُر ، وفى نفس الوقت فإن حياة رسول الله ﷺ كلها حياة إيمانية ليس فيها شيء دنيوى يشغل الرسول ﷺ ويجعله ينسي . أما نحن فإن الدنيا قد تشغلنا فننسي ، فلذلك لا بد أن يُذكِّرنا الله ورسوله .

(١) قال ابن كثير : ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم . حيث كانوا قليلين فكثرهم . ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم ، فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم ، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ، ومجوسى ، ورومى ، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم فى الهجرة إلى المدينة ، فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم ، وبذلوا مهجهم فى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .
قال قتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله فى قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلًا ، وأشقاه عيشًا ، وأجوعه بطونًا ، وأعراه جلودًا وأبينه ضلالًا ، من عاش منهم عاش شقيًا ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم قبيلًا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلًا منهم حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ووسع به فى الرزق ، وجعلهم به ملوكًا على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر . وأهل الشكر فى مزيد من الله .
تفسير ابن كثير [٢٨٨،٢٨٧/٢] .

إن المكر له وسائل وغايات ، ووسيلته هى التدبير بخفاء ، وغايته هى إيذاء إنسان قوى لا تقدر على مواجهته مواجهة مباشرة ، فتحتال على هذه المواجهة حتى تتمكن منه وهو غير متنبه لك .

ولكن لماذا مكر الكفار ؟ الله سبحانه وتعالى ذكر لنا ثلاثة أشياء :

الأول : يمكرون ليثبتوك .

الثانى : ويمكرون ليقتلوك .

الثالث : ويمكرون ليخرجوك .

وقد ذكر الله هذه الأسباب الثلاثة ؛ لأنها هى التى اقترحت فى الاجتماع الذى عقده كفار قريش ، وتشاوروا فيما يفعلون برسول الله ﷺ . فقد علموا أن أهل المدينة من الأوس والخزرج بايعوا رسول الله ﷺ ، وأنه مهاجر إليهم ، وقد أفزعهم هذا ؛ لأن هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ستزيده قوة ومنعة . وإذا كان - وهو فى مكة - قد أصبح له أتباع ، وفى كل يوم يزداد عدد المسلمين بالرغم من العذاب الشديد الذى يلاقونه والذى وصل فى حدته وشدته إلى القتل ، فكيف إذا هاجر إلى المدينة وآمن الأوس والخزرج ؟ بالطبع ستزداد قوتهم ويهددون قريشاً وزعامتها بالجزيرة العربية ، ولذلك اجتمعوا فى دار الندوة ؛ ليقرروا كيف يتخلصون من محمد ﷺ .

وبينما هم مجتمعون دخل عليهم إبليس فى زى أعرابى من نجد وسمع لقولهم : نثبته . فما معنى نثبته ؟ التثبيت ضد الحركة ، فالسكون ثبات ، والحركة ضد الثبات .

إذن .. فهم يريدون أن يقيدوا حركة رسول الله ﷺ؛ لأن حركته تخوفهم . فعندما كان رسول الله ﷺ فى مكة بدون حركة إيمانية ، لم يكن فى وجوده أى خوف أو تهديد للكفار ، بل كانوا يأتمنونه على أموالهم ويلقبونه بالصادق

الأمين . ولكن تحرك رسول الله ﷺ لنشر منهج الله هو الذى خوفهم . ولذلك فلا بد أن تمنع حركته بأن يقيدوه فى مكان أو يحددوا حركته بالسجن . ولكن هذا الرأى لم يوافق عليه المجتمعون ؛ لأنهم إن قيدوه أو سجنوه سيأتى المؤمنون ليفكوا عنه القيد ، أو يخرجوه من السجن ، فكأنهم لم يفعلوا شيئًا . وحينئذ قام آخر وقال : نخرجه من مكة فيذهب لحال سبيله ، فيبتعد عنا فلا نقاسى منه ومن دعوته ، ولكنهم رفضوا هذا الرأى أيضًا؛ لأنهم إن أخرجوه سيؤثر فيمن يخرج إليه تأثيراً ، الأمر الذى يجعل له أتباعاً كثيرين .

واستقر الرأى فى النهاية على أن يقتلوه .. ولكن ما هى الوسيلة ؟ إن قتله واحد من رجال قريش قام أهل رسول الله ﷺ للثأر وحدثت حروب لا يعلم أحد متى تنتهى . فاقترح إبليس عليهم أن يأخذوا من كل قبيلة فتى من أقوى وأبرع فتيانها فى القتال . ويذهبوا إلى بيت رسول الله ﷺ ، ويدخلوا عليه وهو راقد فى فراشه فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذا يتفرق دمه بين القبائل . وحينئذ لا تستطيع قبيلة رسول الله ﷺ أن تواجه كل القبائل ، فترضى بالدية وتنتهى المسألة .

إذن .. فقد كان هناك ثلاثة اقتراحات ، إما التثبيت وهو التقييد أو السجن ، وإما الإخراج أى يخرجونه من مكة ويمنعونه من دخولها ، أو يقتلونه ويتفرق دمه بين القبائل . كان هذا هو مكرهم . ولكن الله تعالى كان بهم محيطًا ، وأعد لهم ما لم يستطيعوا اكتشافه ، فمهما مكر الكفار فالله تعالى أعلم بمكرهم ، وأعد لرسوله ﷺ طريق النجاة الذى لن يصلوا إليه فيه . ولذلك فإن مكرهم لن يحقق شيئاً بل على العكس ، سيخيب أثره ويفشل .

وقد حدث فعلاً وخرج رسول الله ﷺ من بيته ، بينما ألقى الله النوم على فتيان قريش الواقفين بسيوفهم على باب دار الرسول عليه الصلاة والسلام ،

وخرج رسول الله ، وأمسك حفنة من الرمال ورماها فى وجوه فتيان قريش ، وقال : « شاهت الوجوه »[1] ، وانطلق رسول الله ﷺ فى رحلته إلى المدينة ، وحفظته عناية الله حتى وصل إلى المدينة المنورة .وهكذا كان فضل الله بأن حفظ رسوله من مكر الكفار .

---

(١) عن ابن عباس قال : إن الملأ من قريش اجتمعوا فى الحجر ، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف : لو قد رأينا محمدًا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله ، فأقبلت ابنته فاطمة تبكى ، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك ، لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك ، فقال : « يا بنية ، أريني وَضُوءًا » فتوضأ ، ثم دخل عليهم المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا ، وخفضوا أبصارهم ، وسقطت أذقانهم فى صدورهم ، وعقروا فى مجالسهم ، فلم يرفعوا إليه بصرًا ، ولم يقم إليه منهم رجل ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم ، فأخذ قبضة من التراب ، فقال : « شاهت الوجوه » ، ثم حصبهم بها ، فما أصاب رجلًا منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافرًا . أخرجه أحمد فى المسند [١/٣٠٣،٣٦٨] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٨٦٢،٣٤٨٥] ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه [٦٥٠٢] ، وصححه الأرناؤوط .

وقال ابن إسحاق : ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له فى دار الندوة « وهى دار قصى ابن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها » يتشاورون ما يصنعون فى أمر رسول الله ﷺ حين خافوه .

قال ابن إسحاق : فحدثنى من لا أتهم من أصحابنا ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد بن جبر أبى الحجاج وغيره ممن لا أتهم ، عن عبد الله بن عباس =

= رضى الله تعالى عنهما ، قال لما أجمعوا على ذلك واتعدوا أن يدخلوا فى دار الندوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله ﷺ غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له ، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة ، فاعترضهم إبليس – لعنه الله – فى هيئة شيخ جليل عليه بت[1] له ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفًا على بابها قالوا : مَن الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا ، قال : أجل ، فادخل ، فدخل معهم – لعنه الله – وقد اجتمع فيها أشراف قريش : من بنى عبد شمس : عتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، ومن بنى نوفل بن عبد مناف : طعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بنى عبد الدار بن قصى : النضر بن الحارث بن كلدة ، ومن بنى أسد بن عبد العزى : أبو البخترى بن هشام ، وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حزام ، ومن بنى مخزوم : أبو جهل ابن هشام ، ومن بنى سهم : نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، ومن بنى جمح : أمية ابن خلف ، ومن كان معهم ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيًا ، قال : فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابًا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيرًا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره فتشاوروا عليه ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا أُخرج عنا فوالله =

(1) البت : كساء غليظ من صوف أو وبر .

= ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟! والله ؛ لئن ؛ فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيًا غير هذا ، قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد . وقالوا : وما هو يا أبا الحكم : قال : لرأى أن نأخذ من كل قبيلة شابًا فتى جليدًا[1] نسيبًا وسيطًا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا[2] ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا ، فرضوا منا بالعقل[3] فعقلناه لهم ، قال : يقول الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى ، لا رأى غيره ، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

السيرة لابن هشام [٢/١٠٠-١٠٢] .

(1) جليدًا : قويًا شديدًا .
(2) صارمًا : قاطعًا .
(3) العقل : الدية ، وهى المال الذى يعطى لولى القتيل .

ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] . والمكر هو التبييت الدقيق الخفى الذى يصنعه الماكر ليعمى على الممكور به[1] ، وهذه ظاهرة لا تدل على القوة ، ولكنها تدل على الضعف ؛ لأن الشجاع لا يمكر ، ولكنه يواجه ، ولكن الذى يمكر هو من يعجز عن المواجهة مثل الذى يكيد ويرتب أمورًا ينفذ بها كيده ، هذا أيضاً دليل على الضعف والخوف .

ولذلك يقال : المرأة أقوى من الرجل ؛ لأن الله قال عنها : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] ، وكيدهن عظيم لأن ضعفهن أعظم ، ولا يكيد إلا الضعيف . لكن لو أخطأ واحد فى حق إنسان قوى فإنه قادر على أن ينتقم منه ، ولكنه يتركه من أجل الله ، ويقول له : هذه المرة سامحتك لكن لا تفعلها مرة أخرى ، فهذا قوى لأنه لا يخشى المرة القادمة ، أما الآخر الذى لا يقدر على المرة الثانية ، فإنه ينتهز فرصة أول مرة ويضرب ضربته؛ لأنه

(١) قال صاحب القاموس القويم للقرآن الكريم : مكر – من باب نصر – يمكر مكرًا : دبَّر الشر لغيره فى خفية واحتيال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ [يونس : ٢١] . أى تدبير سيء يقصد صرفها عن وجهها وصد الناس عنها .
وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه ، فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] . [القاموس القويم ٢/٢٣١، ٢٣٢] .

لا يقدر على غيرها . قال الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إذن .. فالمكر تبييت خفى يبيته الماكر بما يستر عن الممكور به . لكن أنت حين تمكر ، فإنك تمكر بواحد مثلك ليس له مدد من جهة ثانية أعلى منك . إنما الرسل حين تمكر بهم – وهم مؤيَّدون من عند الله تعالى – فإذا مكرت بهم فمكرك مكشوف ومعروف لهم . وإذا عرف المكر فلا مكر . وعرفه من يقدر على إبطاله وهو الله سبحانه . فقد يعرف الإنسان مكرًا ولكن لا يستطيع إبطاله ، والله تعالى يحمى رسله وأنبياءه وينصرهم حتى يستطيعوا أن يبلغوا رسالات الله إلى البشرية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر : ٥١] ولذلك : لعظمة النبى ﷺ وعظمة منهجه ، أراه الله كل هذه الأشياء ، فحاربه الكفار مواجهة باللسان فاتهموه بالجنون والكذب والسحر والكهانة ، وحاربوه مواجهة بالإيذاء ، وحاربوه تبييتاً ومكرًا ، وقد حدث هذا فى ليلة الهجرة ، فمكروا وخططوا وجاءوا بأقوى وأشجع شبابهم وانتظروا أمام بيت النبى ﷺ حتى يحين وقت تنفيذ الجريمة .

ولكن الله أراد أن يثبت لهم أنهم مغفلون ، وأن مكرهم مكشوف ومفضوح وأن الله سيحمى نبيه من مكرهم ويحفظه من كيدهم ، فأخرجه أمامهم دون أن يروه[1] ، فكأنه سبحانه يطمئنه بخيره ويقول له: لن يُنصروا

(١) قال ابن كثير : قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ سؤالاً فقال : قد عُلم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية ، كيحيى ، وزكريا ، وشعيا ، =

عليك بأى وسيلة لا باعتداءات اللسان ولا باعتداءات الجوارح ، ولا بالمجاهرة ولا بالتبييت ، ولا حتى بالاستنصار بالجن ، فلن يضروك بشيء . وهذه مسألة وضحت مع جميع الرسل . فهذه تسلية لرسول الله ﷺ ، وحتى يعلم أن الله ناصره ومؤيده ولن يسلمه أبداً لأعدائه .

= ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى ، فأين النصرة فى الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين :

أحدهما : أن يكون الخبر خرج عامًا ، والمراد به البعض . قال : وهذا سائغ فى اللغة .

الثانى : أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم[1] ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم ، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا ، سلط عليهم مِنْ أعدائهم مَنْ أهانهم وسفك دماءهم ، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام . وهذه نصرة عظيمة ، وهذه سنة الله تعالى فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم .

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : «يقول الله تبارك وتعالى : من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالحرب»[2] . ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب =

---

(1) انظر تفسير الطبرى [24/74] .

(2) جزء من حديث أخرجه البخارى [6502] بلفظ : «إن الله قال : مَن عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب» .

= الرس ، وقوم لوط ، وأهل مدين ، وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين ، فلم يهلك منهم أحدًا وعذب الكافرين ، فلم يفلت منهم أحدًا .

وقال السدى : لم يبعث الله عز وجل رسولًا قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون ، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا ، قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها ، وهكذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه ، فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية ، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرّت عينه ببلده ، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم ، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك ، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، ثم قبضه الله تعالى إليه ؛ لما له عنده من الكرامة العظيمة ، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده ، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجلُّ ، قال مجاهد : الأشهاد الملائكة .

تفسير ابن كثير [4/85،86] .

فاللّه سبحانه وتعالى أوضح لرسوله ﷺ ما حدث للرسل وكيف أن اللّه نصرهم ولم يخذلهم . قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ وقال أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ۝ ﴾(1) [الصافات] فلا تخف يا محمد من مكرهم وتبييتهم لك بالشر؛ لأننا أقوى منهم ونعلم مكرهم ونبطله وسنجازيهم عليه .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل : ٢٦] كأن هذا المكر جعلوه بناء ، هنا نقل الشيء المعنوى إلى شيء مادى . فكأن الكفار قد جعلوا المكر حصنًا يحتمون به ويتحصنون فيه . فاللّه سبحانه لم يهدم هذا الحصن من أعلى ، ولكنه هدمه من أسفل فانطبق سقفه على مَنْ فيه . لذلك قال تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] أى سقط عليهم سقف هذا الحصن وهم بداخله؛ لأن البناء لو سقط وهم ليسوا بداخله كانت الخسارة خسارة مملوك فقط ، ولكن أن يقع عليهم وهم بداخله فهذه خسارة مملوك ومالك ، وكل هذا تشبيه لمكر الكفار بالدعوة وصاحبها ﷺ فى عهده وعهد مَنْ سبقه من الرسل . وقوله : ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ يدل على أن المكر الذى بنوه ورتبوه وخططوا له سقط على رءوسهم ؛ لأن

(1) قال أبو الحسن النيسابورى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : تقدم الوعد بأن اللّه ينصرهم بالحجة والظفر بعدوهم ، قال مقاتل : عنى بالكلمة : قوله : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ فهذه الكلمة التى سبقت ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ حزب اللّه لهم الغلبة بالحجة والنصرة فى العاقبة ؛ لأنهم ينجون من عذاب الدنيا والآخرة .

الوسيط فى تفسير القرآن [٣٠/٥٣٥] .

المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله (1) . فقد تجد إنسانًا عنده ولد يريد أن يزوجه . فبدلاً من أن يبحث له عن ذات الدين ، تجده يختار له بنت فلان القوى الذى عنده أولاد أقوياء؛ لكى يحموه هو وابنه ويعيش فى حمايتهم وكنفهم ، فإذا حدث أى خلاف تجد هؤلاء الذين اختارهم وفضلهم لقوتهم وفتوتهم انقلبوا عليه ؛ لأنه مكر مكراً سيئاً ، ولم يهتم بجانب الدين والتربية والخلق .

وقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يفيد أن الحادث وقع فجأة وبغتة لهم ؛ لأن البغتة تشل الحركة ، وتوقف التفكير ؛ ولذلك كان العرب يشنون حروبهم فى الصباح ؛ لأن العدو يكون غير مستعد ؛ لأنه يكون خاملاً من النوم وليس عنده استعداد للحرب .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، لا يشعرون لماذا ؟ لأنهم مكروا وبيتوا وهم يفهمون أن هذا المكر سيخفى علينا ، فحين يأتيهم العذاب يأخذهم بغتة وعلى غرة دون أن يتوقعوه . فيأتيهم من تحتهم ومن فوقهم ومن حيث لا يشعرون(2) . ليس هذ فقط ، بل إن لهم عذابًا فى الآخرة .

(1) إشارة إلى قول اللّه تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٤٣] .

(2) يقول فى التفسير الوسيط : والمعنى : قد تآمر الذين من قبل قريش على رسلهم ، فدبروا لهم المكايد ، ليهلكوهم أو ليقضوا على الحق الإلهى الذى جاءوا به أممهم ، فأحبط اللّه كيدهم ، وسقط عليهم بنيان المؤامرة التى دبروها ، دون أن ينال الرسل منها كريهة .

وشبهت حال الماكرين برسلهم فى تدبير مكايدهم لتى أرادوا بها الإيقاع برسل اللّه وفى إبطال اللّه تعالى تلك الحيل والمكايد ، وجعلها أسبابًا لهلاكهم ، بحال قوم =

فاللّه سبحانه حين هدد الكفار وتوعدهم بعذاب الآخرة لم يتركهم في الدنيا بدون عقاب ، ولكنه يذيقهم العذاب الدنيوى أحيانًا حتى يكونوا عبرة لغيرهم . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور : ٤٧] . ومعنى قوله : ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : أقرب من الآخرة يقع لهم في الدنيا قبل الآخرة . هنا العكس ، هذا عذاب في الدنيا ؛ لأن العذاب أتاهم من تحتهم ، وخر عليهم السقف وجاءهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وبعد ذلك تقول الآيات : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : ٢٧] والخزى هو الهوان والمذلة ، وهو للمستكبرين أقوى من العذاب والإيلام ؛ لأن الضرب يمكن أن يتجلد فيه ، ويتحمل . كما قيل :

وتجلدى للشامتين أريهمو ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فقد يصبر الإنسان على الضرب ويكتم ألمه ، ولكن الخزى لا يستطيع أن يكتمه ؛ لأن الخزى قشعريرة تغشى البدن وتعلو الوجوه لا يستطيع أن يفلت منها ، إنما الآلام الجسدية يمكن أن يكتمها . ولكن الخزى ألم نفسى والآلام النفسية تنضح على البشرة مهما حاول الإنسان أن يكتمها . فأنت ترى

= بنوا بنيانًا ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : أتاهم الهلاك والدمار من جهة بنيانهم الذى أقاموه ضد الرسل ، وقد كانوا يظنون أنه محكم بحيث لا يأتيهم من جهته ما يؤذيهم ، فخيب اللّه ظنهم وجعله سبب هلاكهم في دنياهم . وكذلك أنتم يأهل مكة ، أحكمتم أمركم ضد القرآن العظيم ، وقلتم فيه ما قلتم ، ومن جملته أنه أساطير الأولين ، فسيأتيكم العذاب في الدنيا من حيث لا تحتسبون كما فعل اللّه بمن قبلكم ، إن ظللتم على كفركم .

الإنسان تعرفه من شكله إن كان حزينًا أو سعيدًا ، فالخزى يقتل خميرة الاستكبار في البدن .

ولذلك يضرب الحق سبحانه وتعالى لنا المثل يقول : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] التذوق دائمًا يكون في اللسان ، فأنت تتذوق أى شيء في فمك ، وبعد أن يمر إلى بطنك ينتهى التذوق . ولكن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الجوع أصبح لباسًا يلبسه الجسم ، فيشعر به الجسم كله ويحس بألمه ؛ لأنه يريد أن يعطى الصورة قوة ويعمم الألم على الجسم . فساعة يحدث الإذلال للمتكبرين ، فهذا أصعب عذاب لهم ، وخاصة أمام الذين كانوا يتبعونهم ويعظمونهم .

ثم يأتى التحدى في قوله سبحانه : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : ٢٧] أين الذين جعلتموهم شركاء لي ؟ لماذا لم يأتوا لنصرتكم في هذا الموقف ؟! في هذا اليوم يعترف الكفار على أنفسهم بعد أن تخلى عنهم شركاؤهم ؛ فيقولون : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء] .

إذن .. أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؟ لماذا تخلوا عنكم ؟ ومعنى ﴿ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ : من الشق ، والشق صدع بين شيئين ، مثل أن تشق جدارًا أو لوح زجاج أو غير ذلك .

فمعنى : ﴿ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أى : جعلتموهم شقًا وجعلتم المؤمنين ومن معهم شقًا ، فكأنهم جعلوهم خصمين ، فتشاقون أى تقسمون المسألة ، فأنتم في جانب الباطل وغيركم في جانب الحق ، فأنتم تشاقون بسببهم ، فأين هم الآن ؟ لماذا لم يأتوا لينصروكم[1] ؟

(١) ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [النحل : ٢٧] أى ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل اللّه المشركين بعذاب الخزى =

= على رؤوس الأشهاد ، ويقول لهم تفضيحًا وتوبيخًا : أين شركائي في الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين في شأنهم ، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقذوكم إن كنتم صادقين في مزاعمكم نحوهم ، وهيهات أن يجدوهم شافعين أو منقذين ؛ بل لائمين مكذبين .

[التفسير الوسيط] .

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى :

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ ، فيقول لهم : أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها ، قائلين : إنكم لا بد لكم أن تشركوهم معي في عبادتي !

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : ٦٢] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝ ﴾ [الشعراء] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ... ۝ ﴾ [غافر] . الآية .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٣٧] .

أضواء البيان [٣/٢٣٦] .

يتفق موسى بن عقبة وابن إسحاق على أن أبا سلمة بن عبد الأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة . فوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة [١] .

وكذلك فإن مصعب بن عمير وابن أم مكتوم كانا من أوائل المهاجرين حيث كانا يقرئان الناس القرآن[٢] . وقد تتابع المهاجرون فقدم المدينة بلال بن رباح وسعد ابن أبي وقاص وعمار بن ياسر ثم عمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة[٣] . =

(١) قال ابن هشام في السيرة [٢/٨١]: فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم : أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم . واسمه عبد الله ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرًا .

وانظر دلائل النبوة للبيهقي [٢/٤٦٠] ، والبداية والنهاية لابن كثير [٣/١٦٩] وجاء في صحيح مسلم [٣/٩١٨] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : أي المسلمين خير من أبي سلمة : أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ .

(٢) عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله تعالى عنهم » .

أخرجه البخاري [٣٩٢٤] .

(٣) عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانوا يُقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر . ثم قدم عمر ابن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ ، فما قدم حتى قرأت ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ في سور من المفصل » .

أخرجه البخاري [٣٩٢٥] .

= وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة ، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين ، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها ، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم ، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة . لكنَّ شيئًا من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة ، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة .

قالت أم المؤمنين أم سلمة رضى الله تعالى عنها : « لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ، ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بعيره . فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علامَ نتركك تسير بها فى البلاد ؟

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد رهط أبى سلمة .

قالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة .

قالت : فَفُرِّق بينى وبين زوجى وبين ابنى .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريبًا منها ؛ حتى مرّ بى رجل من بنى عمر - أحد بنى المغيرة - فرأى ما بى ، فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

قالت : فقالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت .

قالت : ورد بنو عبد الأسد إلىّ عند ذلك ابنى .

قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة . وما معى أحد من خلق الله .

=

= قالت : فقلت : أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى . حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار ، فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟

قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة .

قال : أو ما معك أحد ؟

قالت : فقلت : لا والله إلا الله وبُنىّ هذا .

قال : والله ما لك من متْرك .

فأخذ بخطام البعير . فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله .

ثم استأخر عنى فقال : اركبى ، فإذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه ، فقاد بى حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة . فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلًا - فادخليها على بركة الله . ثم انصرف راجعًا إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة . وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة »[1] .

وقد سقت الخبر بطوله لما فيه من دلالة على الصعوبات التى واجهها المهاجرون ، وهى تشير إلى أثر العصبية فى اتخاذ العشائر القرشية مواقفها من الأحداث . فقد انحاز قوم أبى سلمة إليه رغم مخالفتهم له فى العقيدة ، ثم إن الخبر يكشف عن صورة من صور المروءة التى عرفها المجتمع القرشى قبل الإسلام تتمثل فى موقف =

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة [٨٦/٢-٨٨] ، وابن الأثير فى أُسد الغابة [٣٢٩/٧] ، وابن حجر فى الإصابة [٢٢٢/٨] .

= عثمان بن طلحة وتطوعه فى مصاحبة المرأة وإحسان معاملتها مما يدل على سلامة الفطرة التى قادته أخيرًا إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة مع المرأة المسلمة .

وثمّة صورة تاريخية لحدث آخر هو هجرة عمر بن الخطاب كما حدث بها بنفسه قال : « اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبى ربيعة ، وهشام ابن العاص ابن وائل السهمى ، التناضب من أضاءة بنى غفار فوق سَرِف[1] ، وقلنا : أينا لا يصبح عندها فقد حبس ، فليمض صاحباه .

قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبى ربيعة عند التناضب ، وحبس عنها هشام ، وفتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبى ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما علينا المدينة - ورسول الله ﷺ بمكة - فكلَّماه وقالا : إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، فرقّ لها .

فقلت له : يا عياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم .

فقال : أبر قسم أمى ، ولى هناك مال فآخذه .

فقلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى علىّ إلا أن يخرج معهما .

فلما أبى إلا ذلك قلت : أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول . فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها ، فخرج عليها معهما . حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله يا أخى لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟ =

(1) التناضب : ضرب من الشجر ، أضاءه بنى غفار على عشرة أميال من مكة ، والأضاءة : الغدير وسرف : واد من أودية مكة دخل فى العمران حاليًا .

= قال : بلى .

قال : فأناخ وأناخ ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن .

قال : فكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلاً ولا توبة ؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [الزمر] .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدى فى صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص .

قال : فقال هشام : فلما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى[1] أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها . حتى قلت : اللهم فهمنيها .

قال : فألقى الله تعالى فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا . قال : فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ [2] .

وأما ما روى من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به بثكل أمه فلم يصح[3] . =

(1) ذوى طوى : وادٍ بمكة .

(2) أخرجه البزار فى مسنده [١٣٤٥-كشف] وذكره الهيثمى فى المجمع [٦/٦٤] وقال : رواه البزار ورجاله ثقات . وأخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٤٣٥] مختصرًا ، وصححه ووافقه الذهبى .

(3) عن عبد الله بن العباس قال : قال لى على بن أبى طالب : ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما همّ بالهجرة تقلّد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى فى يده أسهمًا ، واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة ، والملأ =

....

= لقد نزل كثير من المهجرين فى قباء فى مكان يسمى « العصبة » قبل مقدم رسول الله ﷺ ، وكان سالم بن معقل مولى أبى حذيفة يؤمهم فى مسجد قباء ، لكونه أكثرهم قرآنا (١) .

السيرة النبوية الصحيحة [١/٢٠٢-٢٠٧] .

= من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنًا ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة ، وقال لهم : شاهت الوجوه ، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ، من أراد أن تثكله أمه ، ويوتم ولده ، ويرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى . قال على : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه .

ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة [٤/٤٤،١٤٥٠] .

(١) عن ابن عمر قال : لما قدم المهاجرون الأولون العصبة - موضع بقباء - قبل مقدم رسول الله ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبى حذيفة ، وكان أكثرهم قرآنا .

أخرجه البخارى [٦٩٢] .

بدء الهجرة النبوية المباركة (١)

ما دام الإنسان قد آمن بأن العبادة لا تجوز إلا لله وحده ، والاستعانة به جل شأنه . ما دام هذا الإيمان قد استقر فى القلب وظهر فى السلوك ؛ فلا بد أن

(١) عن عائشة رضى الله تعالى عنها زوج النبى ﷺ قالت : « لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار : بكرة وعشية . فلما ابتلى المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة ، حتى بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة - وهو سيد القارة - فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ؛ قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فأنا لك جار . ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج ، أتخرجون رجلًا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذّب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصلِّ فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ؛ فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر لذلك يعبد ربه فى داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه . وكان أبو بكر رجلًا بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ؛ فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره ؛ فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ؛ فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك =

= فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر ، فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إليّ ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل . والنبي ﷺ يومئذ بمكة .

فقال النبي ﷺ للمسلمين : « إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « على رِسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لي » .

فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟

قال : « نعم » .

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر – وهو الخبط – أربعة أشهر .

قال ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأذن له ، فدخل .

قال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج مَنْ عندك .

فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله .

قال : فإني قد أذن لي في الخروج .

فقال أبو بكر : الصحبة بأبي أنت يا رسول الله .

قال رسول الله ﷺ : « نعم » .

قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين .

قال رسول الله ﷺ : « بالثمن » . =

= قالت عائشة : فجهزناهما أحسن الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة في جراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكمنا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل – وهو لبن منحتهما ورضيفهما – حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الديل ، وهو من بني عبد بن عدي هاديًا خِرّيتًا – والخريت الماهر بالهداية – قد غمس حلفًا في آل العاص بن وائل السهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمناه ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل » .

أخرجه البخاري [٣٩٠٥] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « وُلد النبي ﷺ يوم الإثنين ، واستُنبئ يوم الإثنين وتوفي يوم الإثنين ، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الإثنين ، وقدم المدينة يوم الإثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الإثنين » .

أخرجه أحمد في المسند [٢٧٧/١] ، وصححه الشيخ شاكر برقم [٢٥٠٦] .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية [١٧٥/٣] : وقد كانت هجرته عليه السلام في شهر ربيع الأول ، سنة ثلاث عشرة من بعثه عليه السلام وذلك في يوم الإثنين .

ينصر الخالق سبحانه عبده المؤمن على خصوم الإيمان . وهنا نحب أن نذكر حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان ، إن على المؤمن ألا يعتقد أن هناك مخلوقاً من مخلوقات الله قادر على أن يقف معاندًا لله تعالى ، إنما يقف الخلق المعاندون بعضهم لبعض في صراع بينهم ؛ لذلك فإننا نجد في العادة أن القوى يهزم الضعيف . لكن إذا التحم الضعيف المؤمن بمنهج الله ضد خصم معاند فإن خصمه لن يقدر عليه حتى ولو كان الخصم قويًا ، ولسوف يكون الانتصار للضعيف المؤمن الملتزم بمنهج الله على الذى تخيلنا أنه قوي ، لكن قوته مجردة من الإيمان[1] .

ولنأخذ من هجرة الرسول الكريم ﷺ درساً؛ لقد هاجر الرسول ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصديق إلى المدينة ؛ ليقى المؤمنين هذا العذاب الذى كانوا يتعرضون له من قِبَل كفار قريش .

ودخل الرسول ﷺ ومعه أبو بكر إلى غار ثور ؛ يحتميان فيه من الكفار الذين خرجوا للبحث عن محمد ﷺ ، هذا الذى حطم آلهتهم وسفه أحلامهم . وكلنا نعرف قول أبي بكر الصديق لرسول الله ﷺ في هذه اللحظة : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » ، وكان رد الرسول الكريم ﷺ على صاحبه أبي بكر واضحاً جليًا يبعث على الاطمئنان ؛ لقد قال الرسول

(١) قال تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] أى: كم من جماعة قليلة العدد والعدة استعصمت بإيمانها بالله ، توكلت عليه غلبت فئة كثيرة العدد والعدة بإرادة الله ونصره فإن النصر من عند الله ، لا بكثرة الجنود ، فلا ينبغى لنا أن نستقل أنفسنا فنجبن عن لقاء عدونا .

[التفسير الوسيط] .

الكريم ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] . والقرآن الكريم يؤكد هذا القول الواضح بهذه الآية الكريمة : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2] [التوبة : ٤٠] . إن هذا القول الفصل يوضح

(١) عن أنس أن أبا بكر الصديق حدثه قال : نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه . فقال : « يا أبا بكر ! ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

أخرجه البخارى [٤٦٦٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

(٢) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أى بالخروج معه إلى تبوك ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعنى : كفار مكة حين مكروا به ، فصاروا سبب خروجه ، فخرج ومعه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ ﴾ حال من ضميره عليه الصلاة والسلام. أى أحد اثنين ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ بدل من ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ﴾ بدل البعض إذ المراد به زمان متسع . و ﴿ ٱلْغَارِ ﴾ نقب فى أعلى ثور ، وهو جبل فى الجهة اليمنى من مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثًا ؛ ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهما ، ثم يسيرا إلى المدينة ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ بدل ثان ، أى رسول الله ﷺ ﴿ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ أى : أبى بكر ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ وذلك أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه أشفق من المشركين أن يعلموا بمكانهما ، فيخلص إلى الرسول ﷺ أذى ، وطفق يجزع لذلك ، فقال له رسول الله ﷺ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ أى بالنصرة والحفظ . ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ أى أمنته التى تسكن عندها القلوب ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى على النبى ﷺ ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه =

لنا أن الإيمان المطلق بالله تعالى ، وبأنه مالك كل الأسباب قادر أن يبعث الطمأنينة والسكينة فى قلب الرسول ﷺ وصاحبه أبى بكر . والله القوى القادر قد صرف بقدرته نظر الكفار عن الرسول ﷺ وصحبه وهما فى الغار .

ومن هذه الحكاية نستفيد ما يلى :

أن أى صراع يحدث بين إنسان وآخر قد يكون أحدهما قويًا أو يكونان متساويين فى القوة ؛ فإن الغلبة والانتصار سيكونان للأقوى . أما إذا قام صراع بين إنسان مؤمن وآخر غير مؤمن ، فإن الغلبة ستكون للإنسان المؤمن ما دام

= فى الغار ، أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين ، فتكون الجملة معطوفة على قوله : ﴿ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ وقوّى أبو السعود الوجه الثانى بأن الأول يأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم .

قلت : لا إباءة ؛ لأن هذا وصف لازم لإمداد القوة الغيبية فى كل حال ، وفى الثانى تفكيك فى الأسلوب لبعد المتعاطفين ، فافهم . والله أعلم .

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾ أى : المغلوبة المقهورة ، والكلمة : الشرك ، أودعوة الكفر ، فهو مجاز عن معتقدهم الذى من شأنهم التكلم به على أنها الشرك ، أو هى بمعنى الكلام مطلقًا على أنها دعوة الكفر ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ يعنى التوحيد ، أو دعوة الإسلام كما تقدم ، أى التى لا تزال عالية إلى يوم القيامة ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ ﴾ بالرفع على الابتداء و ﴿ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ مبتدأ وخبر . أو تكون ﴿ هِىَ ﴾ فعلًا . وقرئ بالنصب أى : وجعل كلمة الله ، والأول أوجه وأبلغ ؛ لأن الجملة الإسمية تدل على الدوام والثبوت . وإن الجعل لم يتطرق لها ؛ لأنها فى نفسها عالية لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها . وفى إضافة « الكلمة » إلى « الله » إعلاء لمكانها ، وتنويه لشأنها ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أى غالب على ما أراد ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى حكمه وتدبيره .

تفسير القاسمى [٣١٥٦/٨-٣١٥٨] بتصرف .

قد آمن بالله ، ولن ينتصر عليه أحد إلا إذا شرد بعيداً عن منهج الله . نضرب مثلاً على ذلك لتقريب المسألة العقائدية - ولله من قبل ومن بعد المثل الأعلى - لنفترض أن رجلاً له غلام صغير ، ووقف الرجل؛ يتحدث إلى صديق له ، وذهب الغلام الصغير بعيداً عن أبيه ليلعب فى الشارع ، وتصدى لهذا الغلام الصغير أطفال أكبر منه فى القوة والعمر ، فلمن يلجأ الغلام ؟ لا بد أنه سيلجأ إلى أبيه . وفى اللحظة التى يلجأ الغلام لأبيه يصاب الأولاد الأكبر منه بالخوف ؛ لأن للطفل أباً قويًا وأن الوالد قادر على حماية ابنه .

يحدث ذلك من أب وابن ، كليهما مخلوق من مخلوقات الله . فما بالنا بالخالق لكل الوجود . ماذا يحدث عندما يحتمى صاحب حق ضعيف بالخالق سبحانه ؟! ما بالنا بإنسان يبذل كل ما فى طاقته؛ لتحقيق هدف فى حدود منهج الله ، فتكاثر عليه المكذبون بمنهج الله ،فاستنجد هذا الإنسان المؤمن بالحى القيوم .

إن الحماية هنا لن تكون حماية أب لابنه ، ولكنها حماية خالق لمخلوق . لذلك فعندما يقف عبد مؤمن ملتزم بمنهج الله ، فلابد أن يهزم العبد المكذب بمنهج الله واقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[1] [الزمر : ٣٦] .

---

(١) قال القرطبى : الكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام . ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨١] ، وقال الجرجانى : إن الله كاف عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبى ﷺ مضرة الأوثان ، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك =

بهذا المنطق الإيمانى كان الرسول الكريم ﷺ يواجه قريشاً بكفرها وجهلها وجاهليتها . لقد اختاروا الضلال وأبَوْا أن يُسلموا مع الرسول ﷺ لله الواحد الأحد ، فكانت النتيجة الحتمية أن انتصر الرسول ومن معه ، واندحر الشرك وحزبه . وهكذا الإنسان المؤمن بالله تعالى .

= بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أُحذِّركها يا خالد ؛ فإن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس . وتخويفهم خالد تخويف للنبى ﷺ ؛ لأنه الذى وجه خالدًا . ويدخل فى الآية تخويفهم النبى ﷺ بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر : ٤٤] .
تفسير القرطبى [١٥/٢٥٧،٢٥٨] .

الرسول ﷺ وصاحبه فى غار ثور

فى طريق هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، التجأ هو وأبو بكر رضى الله عنه إلى غار ثور(1) واختبآ داخله ، وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار ،

(1) غار ثور : الغار فى اللغة : فجوة فى الجبل تشبه البيت كالمغارة والكهف ، والمراد به هنا : غار ثور الواقع على بعد ساعة سيرًا من مكة .
[التفسير الوسيط – تفسير سورة التوبة] .
قال ابن إسحاق : فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج ، أتى أبا بكر بن أبى قحافة ، فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار ثور – جبل بأسفل مكة – فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبى بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر ؛ وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى فى الغار . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . قال : انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله تعالى عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ؟ يقى رسول الله ﷺ بنفسه .
قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ فى الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبى بكر يكون فى قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون وما يقولون فى شأن رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله تعالى عنه ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، يرعى فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله ابن أبى بكر غدا من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه ببعيريهما وبعير له وأتتهما أسماء =

وسيطر الخوف على قلب أبى بكر خشية أن يقع رسول الله ﷺ فى أيدى الكفار ، وقال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعًا ، فالكفار واقفون على باب الغار ، والنبى ﷺ وأبو بكر فى داخله ، ونظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله .

فماذا قال رسول الله ﷺ ؟

رفع الأمر إلى الله وقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

إذن .. فالرسول ﷺ رفع الأمر إلى الله ، فهو وأبو بكر فى معية الله ، قول أبى بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .. هو قول الإنسان الخائف ، ولكن قول الرسول ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ . معناه أنه بقدرة البشر لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا ، ولكننا ما دمنا فى حماية الله تعالى وعنايته فإنهم لن يرونا؛ ذلك لأن قدرة الله ستزيغ أبصارهم فلن يرونا ، وحتى

= بنت أبى بكر أبى بكر رضى الله تعالى عنهما بسفرتهما[1] ونسيت أن تجعل لها عصامًا[2] فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصامًا ، ثم علقتها به فكان يقال لأسماء بنت أبى بكر : ذات النطاق لذلك .

السيرة لابن هشام [٢/١٠٦-١٠٩] ، وانظر دلائل النبوة للبيهقى [٤٧١-٤٧٥] ، والبداية والنهاية لابن كثير [٣/١٧٨] .

(١) جزء من حديث أخرجه لبخارى [٣٦٥٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

(١) السُّفر : طعام يصنع للمسافر ، وما يُحمل فيه هذا الطعام يسمى أيضًا « السفرة » .

(٢) العصام : حبل تشد به القربة والسفرة وتحملان ، والعصام أيضًا يطلق على عروة الوعاء التى يعلق بها .

إذا نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا ؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحفظنا ، فنحن لا نحفظ أنفسنا ، وهكذا جاءت هذه الآية ؛ لتبين لنا كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة ، وأننا يجب أن نستعين بالله فى جميع الأمور .

ooo

يقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾(1) [إبراهيم : 27].

القول الثابت معناه أنه حق لا يعتريه تغيير . فالناس تتغير من حوله وهو يظل ثابتاً . والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المثبت . افترض أن عندك عموداً مخلخلاً في البيت وجئت له بمهندسين ليثبتوه ، فماذا يفعلون ؟ يعملون له دعائم أرضية من أسفل . وتقول : أنا أحضرت له مهندساً كبيرًا ثبته . إذا كان هذا في البشر ، فما بالك إذا كان الله هو الذي سيثبت ؟ فهذا يردك إلى أن المثبت لن يطرأ على تثبيته خلل .

إذن .. فكلمة تثبيت دلتنا على أن الإنسان ابن أغيار . وقد تقابله مصاعب ومتاعب في حياته . فنقول له : إياك أن تخور .. لماذا ؟ لأن لك ربًا .

(1) قال القرطبي في قوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله .
وقيل : معنى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ﴾ يديمهم الله على القول الثابت .
وقيل : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت .
وقال القفّال وجماعة : ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي في القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يُبعثوا ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي : عند الحساب .
تفسير القرطبي [9/362،363] بتصرف .
وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سُئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » . فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ .
أخرجه البخاري [4699] واللفظ له ، ومسلم [2871] .

ورسول الله ﷺ حينما كان في الغار وجاء القوم يبحثون عنه ، ومروا أمام الغار . قال أبو بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فماذا قال له الرسول ﷺ ؟ المنطق كان يقتضي أن يقول له : لا .. حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه فلن يرانا ، ولكنه لم يقل له ذلك ، وإنما قال له : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾(1) .

(1) عن البراء قال : اشترى أبو بكر رضي الله تعالى عنه من عازب رحلًا بثلاثة عشر درهمًا ، فقال أبو بكر لعازب : مُر البراء فليحمل إليَّ رحلي ، فقال عازب : لا ، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم .
قال : ارتحلنا من مكة فأحيينا - أو سَرَينا - ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة ، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه ، إذ صخرة أتيتها ، فنظرت بقية ظل لها فسويته ، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه ، ثم قلت له : اضطجع يا نبي الله ، فاضطجع النبي ﷺ ، ثم انطلقت أنظر ما حولي : هل أرى من الطلب أحدًا ؟ فإذا أنا براعي غنم يسوقُ غنمه إلى الصخرة ، يريد منها الذي أردنا ، فسألته فقلت له : لمن أنت يا غلام ؟ فقال لرجل من قريش سماه فعرفته ، فقلت : هل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت : فهل أنت حالب لنا ؟ قال : نعم . فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال هكذا ، ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لي كثبة من لبن ، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ ، فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيت . ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله ، قال : « بلى » . فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله ، قال : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ .
أخرجه البخاري [3652] .

أبو بكر يتكلم عن القانون الكونى ، ورسول الله ﷺ يتكلم عن خالق الكون سبحانه . قانون أبو بكر يقول بقوانين الكونيات:لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، ورسول الله ﷺ يتحدث وكله ثقة بأن الله لن يسلمهما فيقول : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »(1) .

إذن . . فوجه الرد على عبارة أبى بكر وهو يقول له : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . كيف عدل عن قوله : لا ، لن يرانا أحد حتى لو نظر تحت قدميه . إلى عبارة أخرى هى : ﴿ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ هنا النبى ﷺ أراد أن يلفت أبا بكر إلى قضية إيمانية ، ليس لأن نظرهم سيكون ضعيفاً فلن يرونا ، ولكن لأننا فى معية الله سبحانه وما دمنا فى معية الله ، فالله تعالى حافظنا منهم ومن شرهم ، والله تعالى بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا(2) .

ooo

(1) أخرجه البخارى [٣٦٦٣] ، ومسلم [٢٣٨١] .

(2) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

دليل النبى ﷺ فى الهجرة

كانت معرفة الطريق من مكة إلى المدينة على زمن رسول الله ﷺ تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات وحينما قام الرسول ﷺ بالهجرة اتخذ دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل (1) .

(1) وقد صح أن الدليل أخذ بهم طريق السواحل(1) . وفصل ابن إسحاق وصف الطريق الذى سلكوه قال : « فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمج(2) ثم استجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخرار(3) ، ثم سلك ثنية المرة ، ثم سلك بهما لقفا (4) ، ثم أجاز بهما مدلجة لقف ، ثم استبطن بهما مدلجة محاج ، ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهما مرجح محاج ، ثم تبطن بهمامرجح من ذى الغضوين ثم من ذى كشر ، ثم أخذ بهما على الجداجد ، ثم على الأجرد ثم سلك بهما ذاسلم من بطن أعداء مدلجة تعهن ، ثم على العبابيد ، ثم اجاز بهما الفاجة .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم ، فحمل رسول الله ﷺ رجل من أسلم : أوس بن حجر على جمل له يقال له : ابن الرداء إلى المدينة وبعث معه غلاما يقال له : مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من =

(1) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٠٥] عن عائشة رضى الله تعالى عنها بلفظ : « وانطلق معهما عامر ابن فهيرة والدليل ، فأخذ بهم طريق السواحل » .

(2) أمج : بلد من أعراض المدينة .

(3) الخرار : موضع بالحجاز ، يقال : قرب الجحفة ، وقيل : هو وادٍ من أودية المدينة ، وقيل : موضع بخيبر .

(4) لقفا : هى ثنية بين مكة والمدينة .

....

= العرج ، فسلك بهما ثنية لعائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن رئم ، ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، يوم الاثنين حين اشتد الضحاء وكادت الشمس تعتدل[1] .

السيرة النبوية الصحيحة [٢١٨،٢١٧/١] ، وسيرة ابن هشام [١١٤،١١٣/٢] .

(١) انظر السيرة لابن هشام [١١٤،١١٣/٢] ، والبيهقى فى دلائل النبوة [٥٠٣/٢] ، والبداية والنهاية لابن كثير [١٩٠،١٨٩/٣] .

سراقة بن مالك يتبع أثر رسول الله ﷺ

كان سراقة بن مالك يتبع أثر الرسول ﷺ ليفوز بالجائزة التى جعلها الكفار لمن يدلهم على مكان الرسول ﷺ ، وكان على فرس له ، فساخت قوائم الفرس فى الرمل ، وهذه من المعجزات التى قال الله عنها : ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ففهم سراقة من ذلك أنه منع من متابعته ، وأن النبى ﷺ ظاهر على قومه فناداهم وقال لهم: انظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول له : وما تبتغى منا ، فقال سراقة: تكتب لى كتابًا يكون آية بينى وبينك ، فأمر النبى ﷺ أبا بكر أن يكتب له فكتب له ، فأخذه ورجع ولم يذكر شيئاً مما كان ، حتى أسلم بعد فتح مكة (١) .

(١) قال سراقة : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فبينا أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركب ثلاثة مروا على آنفًا إنى لأراهم محمدًا وأصحابه .

قال : فأومأت إليه بعينى أن أسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم . قال لعله ، ثم سكت .

قال : ثم مكثت قليلًا ثم قمت فدخلت بيتى ، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لى من دبر حجرتى ، ثم أخذت قداحى التى استقسم بها ثم انطلقت فلبست لامتى ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : لا يضره .

قال : وقد كنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة .

قال : فركبت على أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه . =

= قال : فقلت : ماهذا ؟!

قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : لا يضره .

قال : فأبيت إلا أن أتبعه .

قال : فركبت فى أثره ، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه .

قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : لا يضره .

قال : فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار .

قال : فعرفت حين رأيت أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر .

قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه .

قال : فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « قل له وما تبتغى منا ؟ » فقال لى ذلك أبو بكر .

قال قلت : تكتب لى كتابًا يكون آية بينى وبينك .

قال : اكتب له يا أبا بكر .

فكتب لى كتابًا فى عظم أو فى رقعة أو فى خرقة ، ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ، ثم رجعت فسكت ، فلم أذكر شيئًا مما كان . ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه[1] .

وقد ذكر سراقة فى رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد =

(1) انظر السيرة لابن هشام [٢/ ١١٢،١١]، ودلائل النبوة للبيهقى [٢/٤٧٨،٤٨٨] ، وابن الأثير فى أسد الغابة [٢/٤١٣،٤١٤] .

= والمتاع فلم يأخذا منه شيئًا ، وأن وصيته كانت : « أخف عنا »[1] . وتذكر رواية صحيحة أنه صار آخر النهار مسلحة للنبى ﷺ بعدأن كان جاهدًا عليه أوله . =

(1) عن مالك المدلجى أنه سمع سراقة بن جعشم يقول : « جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة ؛ إنى قد رأيت آنفًا أسودة بالساحل أراها محمدًا وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا . ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى - وهى من وراء أكمة - فتحبسها علىّ ، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجّه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها تقرب بى ، حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى ، فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام ، فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره فركبت فرسى - وعصيت الأزلام - تقرّب بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين . فخررت عنها ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم . ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ ، فقلت له : إن قومك قد جعلوا فيك الدّية . وأخبرتهم أخبار ما يريدالناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآنى ، ولم يسألانى إلا أن قال : « أخف عنا » . فسألته أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أدم ، ثم مضى رسول الله ﷺ » . جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٠٦] .

= وأن الرسول هو الذى دعا عيه فصرعه الفرس . وقد احتاط الاثنان فى الكلام مع الناس الذين يقابلونهم فى الطريق ، فإذا سئل أبو بكر عن رسول اللّه قال : هذا الرجل يهدينى السبيل ، فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ؛ وإنما يعنى سبيل الخير[1] .

السيرة النبوية الصحيحة [١/ ٢١٥-٢١٧] .

(١) عن أنس بن مالك رضى اللّه تعالى عنه قال : « أقبل نبى اللّه ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر ، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبى اللّه ﷺ شاب لا يعرف .
قال : فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك ؟
فيقول : هذا الرجل يهدينى السبيل .
قال : فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير . فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم ، فقال : يا رسول الله ، هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبى اللّه ﷺ فقال : « اللهم اصرعه » ؛ فصرعه الفرس ، ثم قامت تحمحم ، فقال : يا نبى اللّه مرنى بم شئت .
قال : « فقف مكانك ، لا تركن أحداً يلحق بنا » .
قال : فكان أول النهار جاهداً على نبى اللّه ﷺ ، وكان آخر النهار مسلحة له .
جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩١١] .

قال الشيخ فى قصيدة موكب النور :

وأتى أم معبـد فتســامتْ	ويحها . ويحها وويح كــريم
قدَّمت شـاتها بضرع بخيل	وإذا اللهُ كان عــونَ نبي
وهى من فكرة القِرى فى دوار	حين تؤذيه صـدمة الإعسار
فإذا مسَّـه فال كالمـدرار	فازجر العقلَ عن حدود اقتدار[1]

(١) عن هشام بن حبيش بن خويلد صاحب رسول اللّه ﷺ : أن رسول اللّه ﷺ خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة وأبو بكر رضى اللّه عنه ،ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة ، ودليلهما الليثى عبد اللّه بن أريقط ، مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الخيمة ثم تسقى وتطعم ، فسألوها لحماً وتمراً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مرملين مسنتين فنظر رسول اللّه ﷺ إلى شاة فى كسر الخيمة فقال : « ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ » قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم قال : « هل بها من لبن ؟ » قلت : هى أجهد من ذلك قال : « أتأذنين لى أن أحلبها ؟ » قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها فدعا بها رسول اللّه ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى اللّه تعالى ودعا لها فى شاتها . فتفاجت عليه ودرت فاجترت فدعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء ثم سقاها حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم حتى أراضوا ثم حلب فيه الثانية على هدة حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم بايعها وارتحلوا عنها فقل ما لبث حتى جاءها زوجها أبو معبد ليسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً مخهن قليل ، فلما رأى أبو معبد اللبن أعجبه قال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟! والشاء عازب حائل ولا حلوب فى البيت ، قالت : لا واللّه إلا إنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا ، قال : صفيه لى يا أم معبد ، قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه ، حسن الخلق لم تعبه ثجلة ولم تزريه صعلة ، =

= وسيم قسيم فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف وفى صوته صهل ، وفى عنقه سطع وفى لحيته كثاثة ، أزج أقرن إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء . أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق فصلاً لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ربعة لا تشنأه من طول ولا تقتحمه عين من قصر غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً له رفقاء يحفون به إن قال سمعوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند . قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيال قصى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجازى وسودد

ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

وليهن بنى كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحاً ضرة الشاة مزبد

فغادره رهناً لديها لحالب ... يردها فى مصدر بعد مورد

فلما سمع حسان الهاتف بذلك شبب يجاوب الهاتف فقال :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسرى إليهم ويغتدى

ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم ... فأرشدهم من يتبع الحق يرشد

وهل يستوى ضُلَّال قوم تسفهوا ... عمى وهداة يهتدون بمهتد

وقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

نبى يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله فى كل مشهد =

= وإن قال فى يوم مقالة غائب ... فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغد

أخرجه الحاكم فى المستدرك [٣/٩-١٠] وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ويستدل على صحته وصدق رواته بدلائل :

فمنها : نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر فى أخبار صحيحة ذوات عدد .

ومنها : أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان ، وقد أخذوه لفظاً بعد لفظ عن أبى معبد وأم معبد .

ومنها : أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن فى الرواة .

ومنها : أن الحر بن الصباح النخعى أخذه عن أبى معبد كما أخذه ولده عنه فأما الإسناد الذى رويناه بسياقة الحديث عن الكعبيين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة وقد علونا فى حديث الحر بن الصباح .

وقال الذهبى فى التلخيص : صحيح . ونزول المصطفى بالخيمتين متواتر فى أخبار صحيحة ، ولذلك دلائل :

منها : أن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون وقد أخذوه عن أبى معبد وأم معبد .

ومنها : أن له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه لا إرسال ولا وهن فى الرواة .

ومنها : أن الحر بن الصباح النخعى أخذه عن أبى معبد كما أخذه ولده عنه .

وأخرجه البيهقى فى الدلائل [٢/٤٩١-٤٩٤] ، والطبرانى فى الكبير [٤/٣٦٠٥] ، وذكره الهيثمى فى المجمع [٦/٥٨-٦١] وقال : رواه الطبرانى وفى إسناده جماعة لم أعرفهم .

وقال الدكتور أكرم العمرى : وقد اشتهر فى كتب السيرة والحديث خبر نزول الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم معبد بقديد طالبين القرى ، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها ، إلا شاة هزيلة لا تدر لبناً . فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، =

= ودعا الله ، وحلب فى ناء حتى علت الرغوة ، وشرب الجميع ، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية إلا طريقاً واحدة يرويها الصحابى قيس بن النعمان السكونى ونصها : « لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان نزلا بأبى معبد فقال : والله ما لنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقى لنا لبن .

فقال رسول الله ﷺ : أحسبه فما تلك الشاة ؟ فأتى بها . فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ، ثم حلب عسًا فسقاه ، ثم شربوا ، فقال : أنت الذى يزعم قريش أنك صابئ ؟ قال : إنهم ليقولون . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : أتبعك قال : لا حتى تسمع أنا قد ظهرنا . فاتبعه بعدُ » . وهذا الخبر فيه معجزة حسية للرسول ﷺ . شاهدها أبو معبد فأسلم[1] .

السيرة النبوية الصحيحة : [١/٢١٢-٢١٥] .

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده [١٣٤٢- كشف- ١٧٤٣] وقال : لا نعلم روى قيس عن النبى ﷺ إلا هذا ، ولا نعمه بهذا اللفظ إلا عنه ، وهو يخالف سائر الأحاديث فى قصة أم معبد . وذكره الهيثمى فى المجمع [٦/٦١] وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

قال الشيخ فى قصيدة موكب النور

حرقت قديها المدينـــة شـــوقاً | عبقـــريًا لطلعة المختـــار
أســرعى ناقُ فوق رحليك نـــور | تزجيـــه مواكب الأنصـــار
رحمـــة للحبيب يرجو حبيبــاً | فيرى الدهـــر فى أقلُ انتظـــار
حشــدوا حشدهم فلما تجــلَّى | كر الحشـــد من جلال الوقـــار
مرحبــاً مرحبــاً بأكـــرم داع | وعلى الرحب يا جليـــل المـــزار
أنت بشرى عيسى ودعـوة إبراهيم | .. جاءت ســـليلة الأطهـــار
أنت يا غـــرة الوجود خيـــارٌ | من خيــــار مقطَّرٌ من خيـــار
فاقض فيما لنـــا بما أنت قاضٍ | ذاك حـــق الأنصـــار فى كل دار
جلجـل الحــقُّ قـــوة وحجاجاً | واضـــحاً نهجه وضــــوحَ النهار
فذها الشـــرك ما دهاه وخـرَّت | جبهـةُ الغىّ فى سحيق القـــرار[1]

(١) كان المسلمون فى المدينة قد سمعوا بخروجه من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه ، حتى إذا اشتد الحر عليهم عادوا إلى بيوتهم ، حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا ، وقدم الرسول وقد دخلوا بيوتهم ، فبصر به يهودى فناداهم ، فخرجوا فاستقبلوه ، وكانت فرحتهم به غامرة فقد حملوا أسلحتهم وتقاموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه .

وقد نزل رسول الله ﷺ فى قباء فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء[1] .
=

---

(١) عن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال : «وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه ، حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على =

= ولما عزم رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بنى النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم[1] .

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار .فأحاطوا بالرسول ﷺ وبأبى بكر وهما راكبان ، ومضى الموكب داخل المدينة ، « وقيل فى المدينة : جاء نبى الله[2] . وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان فى الطرق ينادون : يا محمد يا رسول الله ، يا محمد يا رسول الله[3] . =

= أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون . فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ . جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٠٦] .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٣٢] عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل فى علو المدينة ، فى حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، قال : فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ بنى النجار ، قال : فجاءوا متقلدى سيوفهم .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩١١] عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ : فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة ، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبى الله ﷺ وأبى بكر فسلّموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين فركب نبى الله ﷺ وأبو بكر وحفُّوا دونهما بالسلاح ، فقيل فى المدينة : جاء نبى الله ، جاء نبى الله ﷺ ، فأشرفوا ينظرون ويقولون : جاء نبى الله .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٠٠٩] عن البراء بن عازب بلفظ : « فصعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم فى الطريق ينادون : يا محمد ، يا رسول الله ، يا محمد ، يا رسول الله » .

= قال الصحابى البراء بن عازب ، وهو شاهد عيان : « ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله ﷺ »[1] .

أما تلك الروايات التى تفيد استقباله بنشيد « طلع البدر علينا من ثنيات الوداع » فلم ترد بها رواية صحيحة[2] .

وأقبل رسول الله ﷺ يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب الأنصارى فتساءل : « أى بيوت أهلنا أقرب ؟ »

فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى وهذا بابى . فنزل فى داره[3] . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩٢٥] عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمّار بن ياسر . ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين من أصحاب النبى ﷺ ، ثم قدم النبى ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ ، فما قدم حتى قرأت : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ فى سورة من المفصّل » .

(٢) قال الحافظ فى الفتح : وأخرج أبو سعيد فى « شرف المصطفى » ورويناه فى « فوائد الخلعى » من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعاً : « لما دخل النبى ﷺ المدينة جعل الولائد يقلن :

طلع البدر علينا من ثنية الوداع   وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وهو سند معضل ، ولعل ذلك كان فى قدومه من غزوة تبوك . . فتح البارى [٦٧٨/٧]

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٩١١] عن أنس بن مالك بلفظ : فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب ، فإنه ليحدّث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف لهم ، فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها ، فجاء وهى معه ، فسمع من نبى الله ﷺ ثم رجع إلى أهله .

فقال نبى الله ﷺ : « أى بيوت أهلنا أقرب ؟ »

فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى وهذا بابى .

قال : « فانطلق فهيئ لنا مقيلاً » . قال : قوما على بركة الله تعالى .

= وقد ورد في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضافة الرسول ﷺ ، فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده ، فكان يقول لهم : « دعوا الناقة فإنها مأمورة » فبركت على باب أبي أيوب[1] وكان داره طابقين ، قال أبو أيوب الأنصاري : « لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله - بأبي أنت وأمي - إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، ننزل نحن فنكون في السفل ، فقال : يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت .

قال : فلقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه[2] . =

(١) جزء من حديث أخرجه البيهقي في الدلائل [٥٠٤/٢] ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية [٢٠٠/٣] ، وابن هشام في السيرة النبوية [١١٨/٢] ، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح [٦٥٧/٧] وهو حديث ضعيف .

(٢) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نزل عليه فنزل النبي ﷺ في السفل وأبو أيوب في العلو . قال : فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ فتنحَّوا ، فباتوا في جانب ، ثم قال النبي ﷺ : «السفل أرفق» فقال : لا أعلو سقيفة أنت تحتها ، فتحوّل النبي ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل . جزء من حديث أخرجه مسلم [٢١٧١٠٣٥] .

وعن أبي أيوب قال : لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ قلت : بأبي أنت وأمي إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني . فقال رسول الله ﷺ : إني أرفق بي أن أكون في السفل لما يغشانا من الناس » . قال : فلقد رأيت جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ؛ فرقاً أن يصل إلى رسول الله ﷺ شيء يؤذيه أخرجه الحاكم في المستدرك [٤٦١/٣] واللفظ له ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي وأخرجه الطبراني في الكبير [٣٨٥٥/٤] وذكره ابن هشام في السيرة [١٢٣/٢] ، والبيهقي في الدلائل [٥١٠/٢] .

= وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه بدار أبي أيوب سبعة[1] أشهر .

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين[2] . وآثروهم على أنفسهم ، فنالوا من الثناء العظيم الذي خلد ذكرهم على مر الدهور وتتالي الأجيال ، إذ ذكر الله مآثرهم في قرآن يتلوه الناس : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] [الحشر : ٩] .

وقد أثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً قال : « لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار »[4] .

وقال أيضاً : « لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم »[5] .

السيرة النبوية الصحيحة : [٢١٨/١-٢٢٠] بتصرف . =

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [٢٣٧/١] .

(٢) عن أم العلاء رضي الله عنهما : أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين . جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٩٢٩] .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله » ؟ فقام رجل من الأنصار قال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضيف رسول الله ﷺ ، لا تدخريه شيئاً ، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة . ففعلت . ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة . فأنزل الله عز وجل ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . أخرجه البخاري [٤٨٨٩] واللفظ له ، ومسلم [١٧٣/٢٠٥٤] .

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٧٧٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٧٧٨] عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

= وقال ابن القيم : وبلغ الأنصار مخرج رسول اللّه ﷺ من مكة ، وقصده المدينة . وكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار ، فإذا اشتد حر الشمس ، رجعوا على عادتهم إلى منازلهم ، فلما كان يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة ، خرجوا على عادتهم ، فلما حمي حر الشمس رجعوا ، وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه ، فرأى رسول اللّه ﷺ وأصحابه مبيضين ، يزول بهم السراب ، فصرخ بأعلى صوته : يا بني قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، هذا جدكم الذي تنتظرونه ، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقوا رسول اللّه ﷺ ، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو ابن عوف ، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه ، وخرجوا للقائه ، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة ، فأحدقوا به مطيفين حوله ، والسكينة تغشاه ، والوحي ينزل عليه : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم : ٤] ، فسار حتى نزل بقباء في بني عمرو ابن عوف ، فنزل على كلثوم الهدم .

وقيل : بل على سعد بن خثمة ، والأول أثبت ، فأقام في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء ، وهو أول مسجد ، أسس بعد النبوة .

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر اللّه له ، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف ، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي .

ثم ركب ، فأخذوا بخطاء راحلته ، هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة .

فقال : « خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة » .

فلم تزل ناقته سائرة به لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم ، ويقول : « دعوها فإنها مأمورة » .

فسارت حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم ، وبركت ، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً ، ثم التفتت ، فرجعت ، فبركت في موضعها الأول ، =

= فنزل عنها ، وذلك في بني النجار أخواله ﷺ [١]. وكان من توفيق اللّه لها ، فإنه أحب أن ينزل على أخواله ، يكرمهم بذلك ، فجعل الناس يكلمون رسول اللّه ﷺ في النزول عليهم ، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله ، فأدخله بيته ، فجعل رسول اللّه ﷺ يقول : « المرء مع رحله » .

وجاء أسعد بن زرارة ، فأخذ بزمام راحلته . وكانت عنده [٢]

وأصبح كما قال أبو قيس صرمة الأنصاري ، كان ابن عباس يختلف إليه يتحفظ منه هذه الأبيات :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة … يذكر لو يلقى حبيبًا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه … فلم ير من يؤوي ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى … وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى ظلامة ظالم … بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا … وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم … جميعًا وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن اللّه لا رب غيره … وأن كتب اللّه أصبح هاديًا

قال ابن عباس : كان رسول اللّه ﷺ بمكة ، فأمر بالهجرة وأنزل عليه : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[٣]. =

(١) سبق تخريجه .

(٢) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/٢٣٣] : رجاء أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب فحطّ رحله فأدخله منزله ، فجعل رسول اللّه ﷺ يقول : «المرء مع رحله» وجاء أسعد ابن زرارة فأخذ بزمام راحلة رسول اللّه ﷺ فكانت عنده .

(٣) أخرجه الترمذي [٣١٣٩] وقال : حديث حسن صحيح ، وقال الألباني في ضعيف الترمذي [٦١١] : ضعيف الإسناد . وأخرجه الحاكم في المستدرك [٣/٣] وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

قال قتادة : أخرجه اللّٰه من مكة إلى المدينة مخرج صدق ونبي اللّٰه يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل اللّٰه سلطانًا نصيرًا ، وأراه اللّٰه عز وجل دار الهجرة ، وهو بمكة فقال : « رأيت دار هجرتكم بسبخة ذات نخل بين لابتين »[1] .

وذكر الحاكم في « مستدركه » عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال لجبريل : « من يهاجر معي ؟ » قال : أبو بكر الصديق[2] .

قال البراء : أول من قدم علينا من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئان الناس القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر ابن الخطاب رضي اللّٰه تعالى عنه في عشرين راكبًا ، ثم جاء رسول اللّٰه ﷺ ، فما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم به حتى رأيت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول اللّٰه قد جاء[3] .

وقال أنس : شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يومًا قط ؛ كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا ، وشهدته يوم مات ، فما رأيت يومًا قط ؛ كان أقبح ولا أظلم من يوم مات[4] . =

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٢٢٩٧] عن عائشة رضي اللّٰه عنها بلفظ : « قد أريت دار هجرتكم رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك [٥/٣] وقال : حديث صحيح الإسناد والمتن ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح غريب .

(٣) أخرجه البخاري [٣٩٢٥] بلفظ : « أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر . ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قدم النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول اللّٰه ﷺ ، حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول اللّٰه ﷺ ، فما قدم حتى قرأت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] في سور من المفصل » .

(٤) أخرجه أحمد في المسند [٣/٢٤٠] بلفظ : « شهدته عليه الصلاة والسلام يوم دخل علينا المدينة فلم أر يومًا أضوأ منه ، ولا أحسن منه وشهدته يوم مات فلم أر يومًا أقبح منه » . وأخرجه الدارمي في سننه [٨٩] .

= فأقام في منزل أبي أيوب حتى بنى حجره ومسجده ، وبعث رسول اللّٰه ﷺ وهو في منزل أبي أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجته ، وأسامة ابن زيد ، وأمه أم أيمن ، وأما زينب بنت رسول اللّٰه ﷺ فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج ، وخرج عبد اللّٰه بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر ، ومنهم عائشة نزلوا في بيت حارثة بن النعمان[1] .

زاد المعاد [٣/٥٨-٦١] .

(١) ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/٢٣٧، ٢٣٨] .

كان رسول الله ﷺ يصلى حيث أدركته الصلاة ، ثم أمر ببناء المسجد فى أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بنى النجار . وقد اشتراها رسول الله ﷺ ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة فى قبلة المسجد ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون فى بنائه ورسول الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة   فانصر الأنصار والمهاجرة[1]

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين . =

(1) عن أنس بن مالك رضى لله عنه قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل فى علو المدينة ، فى حى يقال لهم : بنو عمرو بن عوف ، قال : فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى ملأ بنى النجار ، قال : فجاءوا متقلدى سيوفهم . قال : وكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ بنى النجار حوله حتى ألقى بفناء أبى أيوب ، قال : فكان يصلى حيث أدركته الصلاة ويصلى فى مرابض الغنم . قال : ثم إنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل إلى ملأ بنى النجار ، فجاءوا .

فقال : « يا بنى النجار ، ثامنونى حائطكم هذا » ، فقالوا : لا والله ولا نطلب ثمنه إلا إلى الله تعالى .

قال : « فكان فيه ما أقول لكم : كانت فيه قبور المشركين ، وكانت فيه خرب ، وكان فيه نخل . فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخل فقطع ، قال : فصفوا النخل قبلة المسجد ، قال : وجعلوا عضادتيه حجارة .

قال : جعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم يقولون :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة   فانصر الأنصار والمهاجرة

أخرجه البخارى [٣٩٣٢] .

وعن عروة بن الزبير قال : « فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ . ثم ركب =

راحلته ، فسار يمشى معه الناس ، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل : غلامين يتيمين فى حجر سعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : « هذا إن شاء الله المنزل » . ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : لا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

ويقول :

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى .   أخرجه البخارى [٣٩٠٦] .

وقال الحافظ : قوله : « وأسس المسجد الذى أسس على التقوى » أى مسجد قباء ، وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عروة قال : الذين بنى فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا فى حديث ابن عباس عند ابن عائذ ولفظه : « ومكث فى بنى عمرو بن عوف ثلاث ليال واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلى فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عوف فهو الذى أسس على التقوى » وروى يونس بن بكير فى « زيادات المغازى » عن المسعودى عن الحكم بن عتيبة قال : « لما قدم النبى ﷺ فنزل بقباء قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله ﷺ بد من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلى فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء ، فهو أول مسجد بنى » يعنى بالمدينة ، وهو فى التحقيق أول مسجد صلى النبى ﷺ فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد لكن لخصوص الذى بناها كما تقدم فى حديث عائشة فى بناء أبى بكر مسجده .

وروى ابن أبى شيبة عن جابر قال : « لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله ﷺ بسنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة » وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ [التوبة : ١٠٨] فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء هنا وهو ظاهر الآية ، وروى مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه : =

= «سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال : هو مسجدكم هذا »(١) ولأحمد والترمذى من وجه آخر عن أبى سعيد «اختلف رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما : هو مسجد النبى ﷺ ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا ، وفى ذلك - يعنى مسجد قباء - خير كثير »(٢) ، ولأحمد عن سهل بن سعد نحوه ، وأخرجه من وجه آخر عن سهل بن سعد عن أبى بن كعب مرفوعاً ، قال القرطبى : هذا السؤال صدر ممن ظهرت له المساواة بين المسجدين فى اشتراكهما فى أن كلاً منهما بناه النبى ﷺ ، فلذلك سئل النبى ﷺ عنه فأجاب بأن المراد مسجده ، وكأن المزية التى اقتضت تعيينه دون مسجد قباء لكون مسجد قباء لم يكن بناؤه بأمر جزم من الله لنبيه ، أو كان رأياً رآه بخلاف مسجده ، أو كان حصل له أو لأصحابه فيه من الأحوال القلبية ما لم يحصل لغيره ، انتهى .

ويحتمل أن تكون المزية لما اتفق من طول إقامته ﷺ بمسجد المدينة ، بخلاف مسجد قباء فما أقام به إلا أياماً قلائل ، وكفى بهذا مزية من غير حاجة إلى ما تكلفه القرطبى ، والحق أن كلاً منهما أسس على التقوى ، وقوله تعالى فى بقية الآية : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ [التوبة : ١٠٨] يؤيد كون المراد مسجد قباء .

وعند أبى داود بإسناد صحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « نزلت ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ فى أهل قباء »(٣) وعلى هذا فالسر فى جوابه ﷺ بأن المسجد الذى أسس على التقوى مسجده، رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء ، والله أعلم .

قال الداودى وغيره : ليس هذا اختلافاً ؛ لأن كلاً منهما أسس على التقوى وكذا قال السهيلى وزاد غيره أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يقتضى أنه مسجد قباء ؛ لأن تأسيسه كان فى أول يوم حل النبى ﷺ بدار الهجرة ، والله أعلم .

فتح البارى [٧/٢٥٦،٢٥٧] .

(١) أخرجه مسلم [١٣٩٨/٥١٤] .

(٢) رواه أحمد فى المسند [٣/٨] ، والترمذى [٣٢٣] وصححه ، واللفظ له . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٦] .

(٣) رواه أبو داود [٤٤] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داوداد [٣٤] .

- كانت الهجرة قاسية الوقع على المهاجرين . وقف رسول الله ﷺ بالحزورة فى سوق مكة فقال : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلىَّ ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت »(١) .

لقد واجه المهاجرون من مكة صعوبة اختلاف المناخ ، فالمدينة بلدة زراعية ، تغطى أراضيها بساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة فى جوها أعلى من مكة ، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر وبلال . فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يومًا مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل

فأخبرت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ فقال : « اللهم حبّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا فى صاعها ومدّها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة »(٢) .

السيرة النبوية الصحيحة [٢٢٢،٢٢٣] .

(١) أخرجه الترمذى [٣٩٢٥] وقال : حديث حسن غريب صحيح ، وابن ماجه [٣١٠٨] واللفظ له ، عن عبد الله بن عدى بن الحمراء . وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه [٢٥٢٣] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال . قالت : فدخلت عليهما ، فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يومًا مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل =

= وقال ابن القيم في بناء المساجد :

قال الزهري : بركت ناقة النبي ﷺ موضع مسجده وهو يومئذ يصلي فيه رجال من المسلمين ، وكان مربداً لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار ، كانا في حجر أسعد ابن زرارة ، فساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد ، ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير ، وكان جداراً ليس له سقف ، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان يصلي فيه ويجمّع أسعد بن زرارة قبل مقدم رسول الله ﷺ ، وكان فيه شجرة غرقد وخرب ونخل وقبور للمشركين ، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت ، وبالخرب فسويت وبالنخل والشجر فقطعت وصفّت في قبلة المسجد ، وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبين مثل ذلك أو دونه ، وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع ، ثم بنوه باللبن ، وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم ، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر(١)

وجعلوا يرتجزون ، وهم ينقلون اللبن ، ويقول بعضهم في رجزه :

لئن قعدنا والرسول يعمل   لذاك منا العمل المضلل

وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باباً في مؤخره ، وباباً يقال له : باب الرحمة ، والباب الذي يدخل منه رسول الله ﷺ ، وجعل عمده الجذوع ، =

= قالت عائشة : فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدها ، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » . أخرجه البخاري [٣٩٢٦]

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/٢٣٩] .

= وسقفه بالجريد ، وقيل له : ألا تسقفه ، فقال : « لا عريش كعريش موسى » وبنى إلى جنبه بيوت أزواجه باللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد قبليه ، وهو مكان حجرته اليوم ، وجعل لسودة بنت زمعة بيتاً آخر(١).

زاد المعاد [٣/٦٢،٦٣] .

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/٢٤٠] .

قال الشيخ فى قصيدة موكب النور :

فاقض فيما لنـــــا بما نت قاض ... ذاك حـــق الأنصـــار فى كلّ دار
جلجـل الحــقُّ قـــوة وحجاجاً ... واضـــحاً نَهجُه وضــــوحَ النهار
فدَها الشــــرك ما دهاهُ وخــرّت ... جبهـــةُ الغيّ فى سحيق القـــرار

لقد نظم النبى ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب فى ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية ، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة . وتحديد الحقوق والواجبات ، وقد سُميت فى المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة الدستور والوثيقة .

طرق ورود الوثيقة « الصحيفة » :

وقد اعتمد الباحثون المعاصرون على الوثيقة فى دراسة تنظيمات الرسول ﷺ فى المدينة المنورة ولكن من الضرورى جدًا التأكد أولاً من مدى صحة الوثيقة قبل أن تبنى عليها الدراسات ، خاصة أن أحد الباحثين يرى أن الوثيقة موضوعة .

ونظراً لأهمية الوثيقة التشريعية إلى جانب أهميتها التأريخية ، فلابد من تحكيم مقاييس أهل الحديث فيه لبيان درجة قوتها أو ضعفها ، وما ينبغى أن يتساهل فيها كما يفعل مع الروايات والأخبار التأريخية الأخرى . إن أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً هو محمد بن إسحاق « ت ١٥١ هـ » لكنه أوردها دون إسناد [١] . وقد صرح بنقلها عنه كل من ابن سيد الناس [٢] وابن كثير [٣] فوردت عندهما دون إسناد أيضاً ، وقد ذكر البيهقى إسناد ابن إسحاق للوثيقة التى تحدد العلاقات بين =

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام [٢/١٢٦-١٢٩] .
(٢) انظر : عيون الأثر [١/١٩٧- ١٩٨] .
(٣) انظر : البداية والنهاية [٣/٢٢٤- ٢٢٦] .

- المهاجرين والأنصار دون البنود التى تتعلق باليهود؛ لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس هذه الطريق أيضاً . وقد ذكر ابن سيد الناس أن ابن أبى خيثمة [١] أورد الكتاب « الوثيقة » فأسنده بهذا الإسناد : « حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزنى عن أبيه عن جده . أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه - أى بنحو - الكتاب الذى أورده ابن إسحاق » [٢] ، ولكن يبدو أن الوثيقة وردت فى القسم المفقود من تاريخ ابن أبى خيثمة إذ لا وجود لها فيما وصل إلينا منه . كذلك وردت الوثيقة فى كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام بإسناد آخر هو : « حدثنى يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالا : حدثنا الليث بن سعد قال : حدثنى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال : بلغنى أن رسول ﷺ كتب بهذا الكتاب .. » [٣] وسرده .

كما وردت الوثيقة فى كتاب الأموال لابن زنجويه من طريق الزهرى أيضاً .

هذه هى الطرق التى وردت منها الوثيقة بنصها الكامل ، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير فى العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة بنود قليلة ، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام .

مدى صحة الوثيقة :

اعتمد عدد من الباحثين المعاصرين على الوثيقة فبنوا عليها دراساتهم ، فى حين ذهب الأستاذ يوسف العش إلى أن الوثيقة موضوعة فهو يقول : « إنها لم ترد فى كتب الفقه والحديث الصحيح رغم أهميتها التشريعية ، بل رواها ابن إسحاق بدون إسناد ، ونقلها عنه ابن سيد الناس ، وأضاف أن كثير بن عبد الله بن عمرو -

(١) هو الحافظ الحجة الإمام أحمد بن أبى خيثمة زهير بن حرب النسائى المتوفى سنة ٢٧٩هـ .
(٢) انظر : عيون الأثر [١/١٩٨] .
(٣) انظر : الأموال [٥١٧] .

= المزنى روى هذا الكتاب عن أبيه عن جده . وقد ذكر ابن حبان البستى : أن كثير المزنى روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحلُ ذكرها فى الكتب ولا الرواية عنها إلا على جهة التعجب . ويرى العش أن ابن إسحاق اعتمد على رواية كثير لكنه تعمد حذف الإسناد .

لقد ذهب الأستاذ العش إلى ذلك؛ لأنه تصور أن الوثيقة لم يروها غير ابن إسحاق ولم يعثر على إسناد لها سوى ما ذكره ابن سيد الناس من رواية ابن أبى خيثمة لها من طريق كثير المزنى .لكن أبا عبيد القاسم بن سلام أورد الوثيقة من طريق الزهرى وهى طريق مستقلة لا صلة لها بكثير المزنى . ونظراً لكون ابن إسحاق من أبرز تلاميذ الزهرى ، فإن ثمة احتمالاً لأن يكون قد أورد الوثيقة من طريقه ، لولا أن البيهقى ذكر إسناد ابن إسحاق للوثيقة التى تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون أن تتناول البنود المتعلقة بيهود ، ولا يمكن الجزم بأن ابن إسحاق أخذ البنود المتعلقة بيهود من هذه الطرق أم من طريق أخرى . فقال البيهقى : « أخبرنى أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال حدثنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال : أخذت من آل عمر بن الخطاب هذا الكتاب كان مقروناً بكتاب الصدقة » والحديث بهذا الإسناد ضعيف؛ لأن عثمان تحملها وجادة وفى الإسناد رجال فيهم ضعف مثل عثمان فهو صدوق له أوهام ويونس بن بكير يخطئ . والعطار ضعيف وتحمله للسيرة صحيح . فالرواية على ضعفها صالحة للاعتبار وقد توبعت ، وإن هذا النص يهدم الأساس الذى بنى عليه الأستاذ العش رأيه . كما أنه لا يمكن الحكم على الوثيقة بأنها موضوعة ؛ لأن كتب الحديث لم ترو نصها كاملاً! فقد أوردت كتب الحديث مقتطفات كثيرة منها تغطى عدداً كبيراً من بنودها كما سيرد خلال البحث . وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة ، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة ، فابن إسحاق فى سيرته رواها دون إسناد مما يجعل =

= روايته ضعيفة وأوردها البيهقى من طريق آخر تصلح أساساً للدراسة التاريخية التى لا تتطلب درجة الصحة التى تقتضيها الأحكام الشرعية ، خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر فى إكسابها القوة ، كما أن الزهرى علم كبير من الرواد الأوائل فى كتابة السيرة النبوية . ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبى ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتاباً [1] . كما ذكرت كتابته المهاجرين والأنصار أيضاً .

كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها « فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة فى عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين فى دراسة تلك الفترة . وليس فى هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة ، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم؛ لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة » . ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبى ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر .

السيرة النبوية الصحيحة : [١/٢٧٢-٢٧٥] .

(١) يراجع للمقارنة كتاب « مجموعة الوثائق السياسية » .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] . ألف الله بين قلوب المسلمين ، فأصبح الإسلام أقوى رابطة تربط بينهم . فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب . وحين تتآلف القلوب؛ فهذا أقوى رباط ؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة في القلب .

إن القلب هو مصدر النية التي يتبعها السلوك ، فالذي يثير إنساناً ضدك إنما هو القلب ، فإن وجدت إنساناً يعبس في وجهك ، فافهم أن في قلبه شيئاً من ناحيتك .

فالقلب هو الينبوع لكل المشاعر ، ولذلك نرى الإنسان يُضَحِّي بكل شيء في سبيل ما آمن به واعتقده . والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة ، والرسول ﷺ يقول في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنهما : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهي القلب »[1] .

ولم تكن المسألة في تآلف القلوب مسألة احتياج إلى مال ؛ لأن المال لا يمكن أن يعطي الحب الحقيقي ، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح ، وارتباط عقيدة مستقرة في القلوب ، وارتباط المصالح ينتهي بمجرد أن تهتز أو تنتهي هذه المصالح ، لكن ارتباط العقيدة تزيده الأزمات قوة وصلابة ، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٥٢] واللفظ له ، ومسلم [١٥٩٩/١٠٧] .

الحقيقي لا يشترى ولا يباع ، إنما يشترى النفاق والتظاهر ، والمؤمنون الذين ألّف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما يهمهم نصرة دين الله الذي آمنوا به ، ونصرة رسول الله ﷺ الذي صدقوه .

والرسول ﷺ يعلم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كما شاء[1] ؛ لذا كان أكثر دعائه ﷺ : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »[2] .

فكان صلوات الله وسلامه عليه من أول الأعمال التي قام بها بعد استقراره بالمدينة المنورة أن آخى بين المهاجرين والأنصار حتى أن المهاجر كان يرث الأنصاري بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم إلى أن نزلت آية المواريث ، فأبطلت ذلك وكان من الفوائد العظيمة لهذه الأخوة الإيمانية إزالة الوحشة والغربة عن المهاجرين نتيجة مفارقتهم الأهل والعشيرة[3] .

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء » .

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي [٣٥٢٢] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها ، وقال : حديث حسن . وقال الألباني في صحيح الترمذي [٢٧٩٢] : حسن صحيح .

(٣) جاء في صحيح البخاري : باب « كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه » ؟

وقال عبد الرحمن بن عوف : « آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع لما قدمنا المدينة » .

وقال أبو جحيفة : « آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء » .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : « قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلني على السوق . فربح شيئًا من أقط وسمن ، فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة . =

= فقال النبي ﷺ : « مهيم يا عبد الرحمن ؟ » .
قال : يا رسول الله ، تزوجت امرأة من الأنصار .
قال : « فما سقت فيها ؟ »
فقال : وزن نواة من ذهب .
فقال النبي ﷺ : « أولم ولو بشاة »[1] .
وقال الحافظ في الفتح : قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهي المقصودة هنا .
وذكر ابن سعد بأسانيد الواقدي إلى جماعة من التابعين قالوا : لما قدم النبي ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة ، وكانوا يتوارثون ، وكانوا تسعين نفساً بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار .
وقيل : كانوا مائة ، فلما نزل : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [الأنفال : ٧٥] بطلت المواريث بينهم بتلك المؤاخاة .
قلت : وسيأتي في الفرائض من حديث ابن عباس « لما قدموا المدينة كان يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم ، فنزلت »[2] .
قال السهيلي : آخى بين أصحابه ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد بعضهم أزر بعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث ، وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل : =

(١) أخرجه البخاري [٣٩٣٧] .
(٢) أخرجه البخاري [٦٧٤٧] عن ابن عباس : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء : ٣٣] قال : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ قال : نسختها : ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ .

= ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] يعني في التوادد وشمول الدعوة ، واختلفوا في ابتدائها :
فقيل : بعد الهجرة بخمسة أشهر ، وقيل : بتسعة ، وقيل : وهو يبني المسجد ، وقيل : قبل بنائه ، وقيل : بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر .
وعند أبي سعيد في « شرف المصطفى » كان الإخاء بينهم في المسجد ، وذكر محمد بن إسحاق المؤاخاة فقال : « قال رسول الله ﷺ لأصحابه بعد أن هاجر : تآخوا أخوين أخوين ، فكان هو وعلي أخوين ، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين ، وجعفر ابن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين » وتعقبه ابن هشام بأن جعفراً كان يومئذ بالحبشة ، وفي هذا نظر ووجهها العماد ابن كثير بأنه أرصده لأخوته حتى يقدم ، وفي تفسير سنيد : آخى بين معاذ وابن مسعود ، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر وعتبان بن مالك أخوين ، وقد تقدم في أوائل الصلاة قول عمر : « كان لي أخ من الأنصار » وفسر بعتبان ، ويمكن أن يكون أخوته له تراخت كما في أبي الدرداء وسلمان . ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين ، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين ، ويقال : بل عمار وثابت بن قيس لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد ، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين ، وتعقب بأن أبا ذر تأخرت هجرته ، والجواب كما في جعفر ، وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين وسلمان وأبو الدرداء أخوين ، وتعقب بأن سلمان تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء ، والجواب ما تقدم في جعفر .
وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة ، واستمر يجددها بحسب من يدخل في الإسلام أو يحضر إلى المدينة ، والإخاء بين سلمان وأبي الدرداء صحيح كما في الباب وعند ابن سعد : وآخى بين أبي الدرداء ، وعوف بن مالك وسنده ضعيف ، والمعتمد ما في الصحيح ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع مذكور في هذا الباب ، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين =

= وأنكر ابن تيمية فى كتاب الرد على ابن المطهر الرافضى المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبى ﷺ لعلى قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم ولتأليف قلوب بعضهم ، فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى ، وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة؛ لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلى لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد ابن حارثة لأن زيداً مولاهم فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين ، وسيأتى فى عمرة القضاء قول زيد بن حارثة : إن بنت حمزة بنت أخى ، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبى الشعثاء عن ابن عباس « آخى النبى ﷺ بين الزبير وابن مسعود »[1] وهما من المهاجرين . قلت : وأخرجه الضياء فى المختارة من المعجم الكبير للطبرانى ؛ وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك ، وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر « آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن ابن عوف وعثمان وذكر جماعة قال : فقال على : يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى؟ قال : « أنا أخوك » وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به .

قوله : « وقال عبد الرحمن بن عوف : آخى النبى ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع » هو طرف من حديث تقدم موصولاً فى أوائل البيوع من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه وهو سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن جده قال : « قال عبد الرحمن بن عوف لما قدمنا المدينة آخى النبى ﷺ بينى وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد : إنى أكثر الأنصار مالاً فأقاسمك مالى » الحديث[2] ، وظن الشيخ عماد =

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك [٣/٣١٤] وصححه ، ووافقه الذهبى .
(٢) أخرجه البخارى [٢٠٤٨] .

= الدين بن كثير أن البخارى أشار بهذا التعليق إلى حديث أنس فقال : قصة عبد الرحمن لا تعرف مسندة عنه ، وإنما أسندها البخارى وغيره عن أنس ، قال : فلعل البخارى أراد أن أنساً حملها عن عبد الرحمن بن عوف . انتهى . والذى ادعاه مردود لثبوته فى الصحيح .

قوله : « وقال أبو جحيفة آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء » هو طرف من حديث وصله بتمامه فى كتاب الصيام ، والغرض منه التنبيه على تسمية من وقع الإخاء بينهم من المهاجرين والأنصار ، فذكر هذا والذى بعده من إخاء سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ، ولمسلم من طريق ثابت عن أنس « آخى النبى ﷺ بين أبى طلحة وأبى عبيدة »[1] وتقدم فى الإيمان حديث عمر « كان لى أخ من الأنصار وكنا نتناوب النزول » وذكر ابن إسحاق أنه عتبان بن مالك ، وكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد أخوين فيما ذكره ابن إسحاق أيضاً .

فتح البارى [٧/ ٦٨٩-٦٩١] بتصرف .

وقال ابن القيم : ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس ابن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة .

وقد قيل : إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها عليًا أخاً لنفسه[2] والثبت الأول ، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام ، وأخوة =

(١) أخرجه مسلم [٢٥٢٨] .
(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه فجاء علىٌّ تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بينى وبين أحد فقال له رسول الله ﷺ : « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » . أخرجه الترمذى [٣٧٢٠] وقال : حديث حسن غريب . وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٧٧٢] .

= الدار ، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين ، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق إليه ورفيقه في الهجرة ، وأنيسه في الغار ، وأفضل الصحاب وأكرمهم عليه أبو بكر الصديق ، وقد قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام أفضل » وفي لفظ « ولكن أخي وصاحبي » [1] وهذه الأخوة في الإسلام وإن كانت عامة ، كما قال : « وددت أن قد رأينا إخواننا قالوا : ألسنا إخوانك؟ قال : أنتم أصحابي ، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني » [2] فللصديق من هذه الأخوة أعلى مراتبها ، كما له من الصحبة أعلى مراتبها ، فالصحابة لهم الأخوة ، ومزية الصحبة ، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة .

زاد المعاد : [٣/٦٣-٦٥] .

---

(١) أخرجه البخاري [٣٦٥٧] بلفظ : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذته خليلاً ولكن أخوة الإسلام أفضل » .
وأخرج أيضاً [٣٦٥٦] عن ابن عباس رضي الله عنهما : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخي وصاحبي » .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٣٩/٢٤٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : أتى رسول الله ﷺ المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . وددت أنا قد رأينا إخواننا » .
قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول الله ؟
قال : « أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ... » .

قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

من المعلوم أن ﴿ قَدْ ﴾ حرف تحقيق ، و ﴿ نَرَىٰ ﴾ : فعل مضارع ، مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم ، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله ﷺ أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتي الوحي من السماء ، فكأنه ﷺ كان يتجه ببصره إلى السماء مكان نزول الوحي ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقاً بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة ،فكأن هذا أمر قد شغله [1] .

---

(١) قال ابن القيم : كان النبي ﷺ يصلي إلى قبلة بيت المقدس ، ويحب أن يُصرف إلى الكعبة ، وقال لجبريل : « وددت أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود » . فقال : إنما أنا عبد فادع ربك ، واسأله . فجعل يقلب وجهه في السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله عليه : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة قبل وقعة بدر بشهرين[1] .
قال محمد بن سعد : أخبرنا هاشم بن القاسم ، قال : أنبأنا أبو معشر عن محمد ابن كعب القرظي قال : ما خالف نبي نبيًا قط في قبلة ، ولا في سنة إلا أن =

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/٢٤١] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

= رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس حين قدم المدينة ستة عشر شهراً ، ثم قرأ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[1] [الشورى : ٣١] .

وكان لله في جعل القبلة إلى بيت المقدس ، ثم تحويلها إلى الكعبة حكم عظمية ، ومحنة للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

فأما المسلمون ، فقالوا : سمعنا وأطعنا وقالوا : ﴿ آمَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وهم الذين هدى الله ، ولم تكن كبيرة عليهم .

وأما المشركون ، فقالوا : كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا ، وما رجع إليها إلا أنه الحق .

وأما اليهود ، فقالوا : خالف قبلة الأنبياء قبله ، ولو كان نبياً ، لكان يصلى إلى قبلة الأنبياء .

وأما المنافقون ، فقالوا : ما يدرى محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقاً ، فقد تركها ، وإن كانت الثانية هي الحق ، فقد كان على باطل ، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس ، وكات كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وكانت محنة من الله امتحن بها عباده؛ ليرى من يتبع الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه .

ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً ، وطّأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه ، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله ، ثم عقّب ذلك بالتوبيخ لمن تعنّت رسول الله ﷺ ، ولم ينقد له ، ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى ، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء ، وحذّر عباده المؤمنين من موافقتهم ، واتباع أهوائهم ، ثم ذكر كفرهم وشركهم به .

وقولهم : إن له ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً ، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب ، وأينما يولّ عباده وجوههم ، فثمّ وجهه ، وهو الواسع العليم ، فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد ، فثم وجه الله .

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/٢٤٢] .

= ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لايتابعونه ولا يصدقونه ، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأنه إن فعل - وقد أعاذه الله من ذلك - فما له من الله من ولى ولا نصير .

ثم ذكّر أهل الكتاب بنعمته عليهم ، وخوفهم من بأسه يوم القيامة ، ثم ذكر خليله باني بيته الحرام ، وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس ، يأتم به أهل الأرض ، ثم ذكر بيته الحرام ، وبناء خليله له ، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس ، فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم ، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس ، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ، ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم ، وإلى سائر النبيين ، ثم رد على من قال : إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى ، وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدى تحويل القبلة ، ومع هذا كله ، فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم ، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة ، بعد ثالثة ، وأمر به رسله حيثما كان ، ومن حيث خرج ، وأخبر أن الذي يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة ، وأنها هي القبلة التي تليق بهم ، وهم أهلها لأنها أوسط القبل وأفضلها ، وهم أوسط الأمم وخيارهم ، فاختار أفضل القبل لأفضل الأمم ، كما اختار لهم أفضل الرسل ، وأفضل الكتب ، وأخرجهم في خير القرون ، وخصهم بأفضل الشرائع ، ومنحهم خير الأخلاق ، وأسكنهم خير الأرض ، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل ، وموقفهم في القيامة خير المواقف ، فهم على تل عالٍ ، والناس تحتهم ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ؛ لئلا يكون للناس عليهم حجة ، ولكن الظالمين الباغين يحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذُكرت ، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة ، وكل من قدّم على أقوال الرسول سواها ، فحجته من جنس حجج هؤلاء . =

إن الله سبحانه يخبر رسوله ﷺ بأنه قد رأى تقلب وجهه فى السماء ، وأجابه ليتجه إلى القبلة التى يرضاها ، فهل معنى ذلك أن القبلة التى كان عليها الرسول ﷺ وهى بيت المقدس لم يكن راضياً عنها ؟ نقول لا . . وإنما الرضا دائماً يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل ؛

= وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ليتم نعمته عليهم ، وليهديهم ، ثم ذكرهم نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم ، وإنزال كتابه عليهم ، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، ثم أمرهم بذكره وبشكره ، إذ بهذين الأمرين يسترجبون إتمام نعمه ، والمزيد من كرامته ، ويستجلبون ذكره لهم ، ومحبته لهم ، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به ، وهو الصبر والصلاة ، وأخبرهم أنه مع الصابرين .

وأتم نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان فى اليوم والليلة خمس مرات ، وزادهم فى الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية [1] ، فكل هذا كان بعد مقدمه المدينة .

زاد المعاد [٣/٦٦-٦٩] بتصرف .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد فى صلاة الحضر » . أخرجه البخارى [١٠٩٠] ، ومسلم [١/٥٨٦] .

وعنها رضى الله عنها قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ثم هاجر النبى ﷺ ففُرضت أربعاً وتُركت صلاة السفر على الأولى » .

أخرجه البخارى [٣٩٣٥] .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : « فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ فى الحضر أربعاً ، وفى السفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة » .

أخرجه مسلم [٧٨٦/ ٥] ، وأبو داود [١٢٤٧] ، والنسائى فى المجتبى [٣/١٦٩] ، وابن ماجه [١٠٦٨] .

ولذلك لا يقول أحد : إن رسول الله ﷺ لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس ، وإنما يتجه إلى بيت المقدس ، وفى قلبه رغبة ليتجه إلى الكعبة ، هذا يدل على الطاعة والالتزام .

الله تعالى يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ أى : تحبها بعاطفتك ، ورسول الله ﷺ كان يتطلع إلى هذا التغيير ، فكأن عواطفه ﷺ اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ المراد بالوجه : هو الذات كلها . وكلمة : ﴿ شَطْرَ ﴾ معناها الجهة ، والشطر معناه النصف ، وكلا المعنيين صحيح .

إذن .. الذى يقول الشطر هو النصف صحيح ، والذى يقول إن الشطر هو الجهة صحيح .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ أى اتجه جهة المسجد . وفى الزمن الماضى كانت العبادات تتم فى أماكن خاصة ، إلى أن جاء رسول الله ﷺ فجعل الله تعالى له الأرض كلها مسجداً وطهوراً [1] .

(١) عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : « أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

أخرجه البخارى [٣٣٥] واللفظ له ، ومسلم [٣/١٥٢] .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « فُضلنا على الناس بثلاث : جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجُعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء » .

أخرجه مسلم [٤/٥٢١] . =

إن المسجد هو مكان السجود ؛ ونظراً لأن السجود هو منتهى الخضوع لله تعالى ؛ فُسمي المكان الذى نصلى فيه مسجداً ، ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصوراً على الصلاة لله تعالى ، ولا تزاول فيه شيئاً آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة ؛ أما المكان الذى تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه ، والكعبة بيت الله سبحانه باختيار الله[1] ، وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله تعالى ؛ ولذلك كان بيت الله تعالى باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

= وقال الإمام النووى : وقوله ﷺ : « مسجداً » معناه : أن من كان قبلنا إنما أبيح لهم الصلوات فى مواضع مخصوصة كالبيع والكنائس . قال القاضى رحمه الله تعالى : وقيل : إن من كان قبلنا كانوا لا يصلون إلا فيما تيقنوا طهارته من الأرض ، وخصصنا نحن بجواز الصلاة فى جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته .

شرح النووى على مسلم [٩/٣] .

(١) عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : « المسجد الحرام » . قال : قلت : ثم أى؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم كان بينهما ؟ قال : « أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه » .

أخرجه البخارى [٣٣٦٦] واللفظ له ، ومسلم [٥٢٠] .

وروى البيهقى فى الدلائل عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بعث الله تعالى جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً . فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ونودى من تحته : حسبك يا آدم . فلما بناه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون ، حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت .

=

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ ﴾ يعنى أينما كنتم ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ ؛ لأن الآية نزلت وهم فى مسجد بنى سلمة بالمدينة ، فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام ، وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل فى هذا المسجد فقط وفى الوقت الذى نزلت فيه الآية فقط ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أى إن الذين أوتوا الكتب يحاولون التشكيك فى اتباع رسول الله ﷺ؛ إنهم يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التى ذكرت فى التوراة والإنجيل ، ويعلمون أن صاحب القبلتين . ولو لم يتجه الرسول ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة ، لقالوا : إن التوراة والإنجيل يقولان : إن الرسول الخاتم يصلى إلى قبلتين فلماذا لم تتحق؟ولكان هذا أدعى إلى التشكيك .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ يخبر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر ، فموقفهم ليس لصلب الحجة ، ولكن للمكابرة ؛ فهم لا يريدون حجة ولا دليلاً إيمانياً ، ولكنهم يريدون المكابرة[1] .

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير والطبرانى موقوفاً . وزادوا : زعم الناس أن آدم بناه من خمسة أجبل : من حراء ولبنان وطور زيتا وطور سيناء والجودى .

وذكر الحديث المتقى الهندى فى كنز العمال برقم [٣٤٧١٨] ، وعزاه للبيهقى وابن عساكر . قال : وقال البيهقى : تفرد به ابن لهيعة هكذا مرفوعاً .

وانظر سبل الهدى والرشاد [١٧١/١] .

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ . =

= قال العلماء : هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٢] ومعنى : ﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ : تحول وجهك إلى السماء ؛ قاله الطبري . الزجاج : تقلب عينيك في النظر إلى السماء؛ والمعنى متقارب . وخص السماء بالذكر إذ هي مختصة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها ، كالمطر والرحمة والوحي . ومعنى : ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ تحبها . قال السدى : كان إذا صلى نحو بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ينظر ما يؤمر به ، وكان يحب أن يصلى إلى قبل الكعبة فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ .

وروى أبو إسحاق عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ؛ وقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه نحو الكعبة ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ ﴾ أمر ﴿ وَجْهَكَ شَطْرَ ﴾ أي ناحية ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ يعنى الكعبة ، ولا خلاف في هذا .

قيل : حيال البيت كله ؛ عن ابن عباس . =

(١) أخرجه البخاري [٤٠ ، ٤٤٨٦] عن البراء : أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده – أو قال أخواله – من الأنصار ، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة ، فداروا – كما هم – قبل البيت . وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس ، وأهل الكتاب ، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك .
قال زهير : حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا ، فلم ندر مانقول فيهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

= وقال ابن عمر : حيال الميزاب من الكعبة ؛ قاله ابن عطية .
والميزاب : هو قبلة المدينة وأهل الشام ، وهناك قبلة أهل الأندلس .
قلت : قد روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما رسول الله ﷺ قال : « البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتى »[1] .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ الشطر له محامل : يكون الناحية والجهة ، كما في هذه الآية ، وهو ظرف مكان ؛ كما تقول : تلقاءه وجهته . وانتصب الظرف ؛ لأنه فضلة بمنزلة المفعول به ، وأيضاً فإن الفعل واقع فيه . وقال داود بن أبي هند : إن في حرف ابن مسعود « فول وجهك تلقاء المسجد الحرام » .

وشطر الشئ : نصفه ؛ ومنه الحديث : « الطهور شطر الإيمان »[2] . ويكون من الأضداد ، يقال : شطر إلى كذا إذا أقبل نحوه ، وشطر عن كذا إذا أبعد منه وأعرض عنه . فأما الشاطر من الرجال فلأنه قد أخذ في نحو غير الاستواء ، وهو الذى أعيا أهله خبثاً ؛ وقد شطر وشطر – بالضم – شطارة فيهما . وسئل بعضهم عن الشاطر فقال : هو من أخذ في البعد عما نهى الله تعالى عنه .

الثالثة : لا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة في كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه استقبالها ، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له ، وعليه إعادة كل ما صلى ؛ ذكره أبو عمر . =

(١) رواه البيهقى في السنن الكبرى [٢٢٣٤] وقال : تفرد به عمر بن حفص المكى وهو ضعيف لا يحتج به . وروى بإسناد آخر ضعيف عن عبد الله بن حبشى كذلك مرفوعاً ، ولا يحتج بمثله . والله أعلم .
(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم [٢٢٣] ، والترمذى [٣٥١٧] عن أبي مالك الأشعرى رضى الله تعالى عنه .

= وأجمعوا على أن كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاءها ؛ فإن خفيت عليه فعليه أن يستدل على ذلك بكل ما يمكنه من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها . ومن جلس في المسجد الحرام فليكن وجهه إلى الكعبة وينظر إليها إيماناً واحتساباً ، فإنه يُروى أن النظر إلى الكعبة عبادة ؛ قاله عطاء ومجاهد .

الرابعة : واختلفوا هل فرض لغائب استقبال العين أو الجهة ؛ فمنهم من قال بالأول ، قال ابن العربي : وهو ضعيف ؛ لأنه تكليف لما لا يصل إليه . ومنهم من قال بالجهة ؛ وهو الصحيح لثلاثة أوجه :

الأول : أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف .

والثاني : أنه المأمور به في القرآن ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ .

الثـالث : أن العلماء احتجوا الصف الطويل الذي يعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت .

الخامسة : في هذه الآية حجة واضحة لما ذهب إليه مالك ومن وافقه في أن المصلي حكمه أن ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده . وقال الثوري وأبو حنيفة والشافعي والحسن بن حي : يستحب أن يكون نظره إلى موضع سجوده . وقال شريك القاضي : ينظر في القيام إلى موضع السجود ، وفي الركوع إلى موضع قدميه ، وفي السجود إلى موضع أنفه ، وفي القعود إلى حجره .

قال ابن العربي : إنما ينظر أمامه ؛ فإنه إن حنى رأسه ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرأس وهو أشرف الأعضاء ، وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض . فتلك مشقة عظيمة وحرج ، وما جعل علينا في الدين من حرج ؛ أما إن ذلك أفضل لمن قدر عليه . =

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ ﴾ [البقرة] .

ساعة تسمع : ﴿ وَلَئِنْ ﴾ واو ولام وإن ، هذا قسم ، فكأن الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله ﷺ أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ، ولا اتبعوا قبلته .. لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد ، ولو كانوا يريدون دليلاً أو اقتناعاً لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله ﷺ ، وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه ، فالدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفهاً وعناداً ومكابرة وحسداً .

= قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ يريد اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ يعني تحويل القبلة من بيت المقدس . فإن قيل : كيف يعلمون ذلك وليس من دينهم ولا في كتابهم ؟ قيل عنه جوابان :

أحدهما : أنهم لما علموا من كتابهم أن محمداً ﷺ نبي ؛ علموا أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا به .

الثـاني : أنهم علموا من دينهم جواز النسخ وإن جحده بعضهم؛ فصاروا عالمين بجواز القبلة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة الكسائي « تعلمون » بالتاء على مخاطبة أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ . وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ولا يغفل عنها ، وضمنه الوعيد . وقرأ الباقون بالياء من تحت .

تفسير القرطبي [٢/١٥٨-١٦١] بتصرف .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ، فكأنه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة ، ولكى يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ، والمسلمون في جانب آخر ، وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم قال سبحانه : ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ ، فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، حين يخاطب الله سبحانه رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بهذه الآية ، وهو يعلم أن محمداً الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم . نقول: إن المقصود بهذه الآية هى أمة محمد ﷺ .

إن الله يخاطب أمته في شخصه ﷺ قائلاً : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ولكن ماهى أهواء أهل الكتاب؟ هى أن يهادنهم رسول الله ﷺ ، أو يقول : إن ماحرفوه في كتبهم أنزله الله ، وكذا يجعل هوى نفسوهم أمراً متبعاً ، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد ﷺ إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب ، وما حرفوه سيكون من الظالمين ، وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه ، فكيف يقبله من أى فرد من أمة محمد ﷺ ؟

إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التى تفسد العقيدة كلها ، والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لايتسامح فيها ولا يقبلها ، حتى لو حدثت من رسوله ﷺ ولو أنها لن تحدث ، ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماماً من الله على أى مستوى من مستويات الإيمان ، حتى فى مستوى القمة؛ فلتبتعد الأمة المسلمة عن مثل هذا الفعل تماماً .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله ﷺ يعرفونه ، ما الذى يعرفونه هل يعرفون أمر تحويل القبلة؟ أم يعرفون أمر رسول الله ﷺ وبعثه ورسالته التى يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩] .

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ﷺ ، ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . ن عبد الله بن سلام كان جالساً وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان موجوداً ، فسأله عمر : أكنتم تعرفونه يا ابن سلام ؟ – أى : أكنتم تعرفون محمداً ﷺ وأوصافه ؟ – فقال ابن سلام – وكان من أحبار اليهود- أعرفه كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد . فلما سألوه : لماذا ؟ قال : لأن ابنى أخاف أن تكون امرأتى خانتنى فيه ، أما محمد ﷺ فأوصافه مذكورة بالدقة فى التورة بحيث لا نخطئه[1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله ابن سلام : قد أنزل الله على نبيه : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان ، وأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك؟ قال : إنه رسول الله حق من الله ، وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ماتصنع النساء . فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام » .
الدر المنثور [٣٥٧/١] . =

إذن .. فأهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ ويعرفون زمن مبعثه ورسالته .. والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا ، وكفروا بما جاء به رسول الله ﷺ عرفوا ، ولكنهم كتموا مايعرفونه ، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة تقول : كتم الشئ فكأن الشئ بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر . والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ، ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود .

إن الذين يحققون فى القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق . فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة ؛ لأن النطق

= وأخرج البخارى [٣٩١١] فى حديث الهجرة الطويل عن أنس بن مالك : فلما جاء نبى الله ﷺ ، جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى . فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا » . قالوا : ما نعلمه - قالوا للنبى ﷺ قالها ثلاث مرات - قال : « فأى رجل فيكم عبد الله ابن سلام ؟ » قالوا : ذاك سيدنا ، وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : « أفرأيتم إن أسلم ؟ » قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « أفرأيتم إن أسلم ؟ » قالوا حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « أفرأيتم إن أسلم ؟ » قالوا حاشا لله ما كان ليسلم . قال : « يا ابن سلام اخرج عليهم » . فخرج ، فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ .

بالحق لا يحتاج إلى مجهود ، أما كتم الحق فهو الذى يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم النطق بالحق عملية شاقة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أى أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة ، والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه ؟ بالطبع لا ، لابد أن يظهر . فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذى يحدث فى الجسد . الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء؛ لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئاً أصابه مرض ؛ فتتجه إليه بأسباب الشفاء .

إن أخطر الأمراض هى التى لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد مضى وقت العلاج .. والحق دائماً غالب على أمره؛ ولذلك لا توجد معركة بين حقين . أما على الناحية الأخرى فتوجد معركة بين باطل وباطل ، وبين حق وباطل ؛ لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير .

والمعارك بين الحق والباطل تنتهى بهزيمة الباطل بسرعة ، ولكن الذى يطول هو معركة بين باطلين .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ، الحق من الله سبحانه وتعالى ، ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون أن الحق سينتصر ، ولكن الحق لا بد له من قوة تحميه . وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا فى يدى بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار ،دون أن توجد اليد القوية التى ستضرب به ؟ ونحن غالباً نكون مضيعين للحق؛ لأننا لا نوفر له القوة التى ينتصر بها .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ . الممترى هو الذى يشك فى حدوث الشيء . الشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب عليه أى : أنَّ

الاحتمالين متساويان ، ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله؛ ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ ﴾ [البقرة]

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً ، ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لايؤمن ، أن ينصر الحق أو ينصر الباطل ، أن يفعل الخير أو يفعل الشر . كل هذه اختيارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا ؛ بحيث يستطيع أن يفعل أو لايفعل ، وهذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا فقط .

أما ساعة الاحتضار يصبح الإنسان مقهوراً وليس مختاراً؛ فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أن يقول : لن أموت الآن .

ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها ، هذا يختار الكفر ، وهذا يختار الإيمان ، هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فما دام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر والذي يهديه الله يتجه إلى فعل الخيرات وكأنه يتسابق إليها .. لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ؛ ولذلك كلما تسابق إلى خير ، كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى فعل الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ، ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله؛ لأنه كما يقول عز وجل : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أي: أنه ليس

هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى ؛ بل هو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً وسيأتي بكم جميعاً ؛ مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] أي أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لانستطيع أن نفر من علمه . ولا من قدره ولا من عذابه ، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله ، وأنه لا منجاة من الله إلا إليه ؛ ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله ، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة ، أو أنه لن يحاسب ، أو أنه يستطيع أن يختفي .

إن غرور الدنيا قد يصيب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله ، وأنهم لن يلاقوه . نقول لهم : إنكم ستفاجؤون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق ، ستفاجؤون بما سيحدث لكم ، ومن لم يؤمن ، ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى والعذاب الأليم . إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجوا من عذابه ، ويقول لنا : لن يفلت واحد منكم - ولا ذرة من ذرات جسده - من لوقوف بين يدى الله سبحانه وتعالى للحساب ؛ ولذلك ختم الله عز وجل هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أي : أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ، ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على كل شئ قدير .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٩] .

لا بد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة ؟ أكدها ثلاث مرات متقاربة ؛ لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيداً إيمانياً .

لقد جاء بثلاث آيات التي هي أفق اجمع ، واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد . والثانية للمتّجه وهو خارج المسجد . والثالثة للمتّجه من الجهات جميعاً .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ . هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام ، بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة ، على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم ؛ لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ، ولا مشقة زائدة تريد ثواب المؤمن ، فالجهد الذى يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذى يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام ، فأنت إذا اتجهت في صلاتك يميناً أو شمالاً أو شرقاً أو غرباً ، فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة ؛ فما هو سبب التغيير ؟

نقول لهم : إن هذه ليس حجة للتشكيك في تحويل القبلة؛ لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله ، ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية ، يقول المولى جل جلاله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، أى : أن مافعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى ، والله عز وجل ليس غافلاً عن عملكم ، بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام ؛ بل إنّ الله يعلم ماتبدون وما تكتمون فاطمئنوا أنكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام ، واعلموا أن الله سبحانه محيط بكم في كل ما تعملون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠] .

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله ﷺ أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام ، سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة ، أو في أى مكان على الأرض ، وتلك قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذى يصلون فيه[(١)] .

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ يعنى بذلك أهل الأديان ، يقول : لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية : لليهودى وجهة هو موليها ، وللنصرانى وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التى هى القبلة . وقال مجاهد في الرواية الأخرى والحسن : لكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة ، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر : ولكل وجهة هو مولاها ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال ههنا : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٤٨] أى هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ ﴾ [البقرة] .=

= هذا أمر ثالث من اللّٰه تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات . فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام على مانص عليه ابن عباس وغيره . وقيل : بل هو منزل على أحوال .

الأمر الأول : لمن هو مشاهد الكعبة .

والثانى : لمن هو فى مكة غائباً عنها .

والثالث : لمن هو فى بقية البلدان . هكذا وجهه فخر الدين الرازى .

وقال القرطبى : الأول : لمن هو بمكة ، والثانى : لمن هو فى بقية الأمصار ، والثالث : لمن خرج فى الأسفار . ورجح هذا الجواب القرطبى ، وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولاً : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة : ١٤٤] إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] فذكر فى هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه إليها ويرضاها . وقال فى الأمر الثانى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فذكر أنه الحق من اللّٰه وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضاً من اللّٰه يحبه ويرتضيه ، وذكر فى الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف ، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها ، وقيل : غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار . وقد بسطها الرازى وغيره واللّٰه أعلم . وقوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أى أهل الكتاب ؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها =

وقوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ . الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى .. حجة فى ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس ؛ فاتجهوا إلى المسجد الحرام ، وليس لبيت المقدس قدسية فى ذاته ، ولا للمسجد الحرام قدسية فى ذاته ، ولكن نحن نطيع الأمر من الآمر الأعلى وهو اللّٰه عز وجل .

إن اللّٰه تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة : ﴿ ظَلَمُوا۟ ﴾ ووصفهم بأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ، فمن الظالم ؟ الظالم هو: من ينكر الحق أو يغير وجهته ، أو ينقل الحق إلى الباطل والباطل إلى الحق . والظلم هو تجاوز الحق ، وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه ؛ يقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ أى : لا تخشوا الذين ظلموا : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، أى : أن الخشية لله وحده ، والمؤمن لا يخشى بشراً ؛ لأنه يعلم أن القوة لله جميعاً ؛ ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق سبحانه وتعالى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الإيمان وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . فإذا هدانا اللّٰه للإيمان ، فهذا من تمام نعمته

= على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس ، وهذا أظهر ؛ قال أبو العالية : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ يعنى به أهل الكتاب حين قالوا : صرف محمد إلى الكعبة .

وقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه ، وكان حجتهم على النبى ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا .

تفسير ابن كثير : [١/١٨٥] بتصرف .

علينا ، ولكى يكون الإيمان صحيحاً ومقبولاً ، فلا بدَّ أن تؤدى مطالبه ، والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف ينقطع ؛ لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ، ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بقوة وحب ، وأنت حينما تأتى إلى المنهج قد يكون شاقاً ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة ، فإنك ستخشع وتعشق التكليف ؛ لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل الطالح بعقابه ؛ ولذلك قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ ﴾ [البقرة] .

إذن .. الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب ، والمعصية بالعقاب والعذاب ؛ لأن الذى ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب ، فأصبحت ثقيلة ، والذى يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب ، فأصبحت سهلة . فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان ؛ ولذلك فى حجة الوداع نزلت على رسول الله ﷺ الآية الكريمة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] وكان ذلك إخباراً بتمام رسالة رسول الله ﷺ بأن الأحكام التكليفية قد انتهت ، ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك : لقد عمَّ الفساد والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، كأنه يحكم بأن هذا فى وسعه ، وهذا ليس فى وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . نقول له : أكلف الله أو لم يُكلِّف ؟ إن كان قد كلف فيكون التكليف فى وسعك؛ لأنه سبحانه حين يجد مشقة

يأمر بالتخفيف ، مثل إباحة : قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار فى رمضان للمريض والمسافر ، فهو سبحانه قد حدد ما فى وسعك[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .. الهداية هى الطريق المستقيم الموصِّل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هى أن تصل إلى نعيم الآخرة . إن الله أعطاك فى الدنيا الأسباب؛ لتحكم حركة حياتك ، ولكن هذه ليست غاية الحياة؛ بل الغاية أن تذهب إلى حياة بلا أسباب .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، أى : لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم ، ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هى الغاية ، أو هى النهاية أو هى الهدف ؛ فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها مايستطيع حلالاً أو حراماً باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له . نقول : لا ؛ إنه فى هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد؛ لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هى فى الآخرة ، ولعرف أن نعيم الآخرة الذى لا تفوته ولا يفوتك ، يجب أن يكون هدفنا فى الحياة الدنيا ، فنعمل مانستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب فى الجنة .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

لا هجرة بعد الفتح

علينا أن نعرف نحن الذين نعيش فى هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح(1) ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه

---

(1) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنفرتم فانفروا » .

خرجه البخارى [٢٧٨٣، ٢٨٠٥] ، ومسلم [١٨٦٤] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

قال الحافظ فى الفتح : قوله : « لاهجرة بعد الفتح » أى فتح مكة .

قال الخطابى وغيره : كانت الهجرة فرضاً فى أول الإسلام على من أسلم ؛ لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع ، فلما فتح الله مكة دخل الناس فى دين الله أفواجاً فسقط فرض الهجرة إلى المدينة ، وبقى فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو . انتهى .

وكانت الحكمة أيضاً فى وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من أذى ذويه من الكفار فإنهم كانوا يعذبون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه ، وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ [النساء : ٧٩] الآية ، وهذه الهجرة باقية الحكم فى حق من أسلم فى دار الكفر وقدر على الخروج منها .

وقد روى النسائى من طريق بهز ابن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده مرفوعاً : « لا يقبل الله من مشرك عملاً بعد ما أسلم أو يفارق المشركين » (1) . =

---

(1) جزء من حديث رواه النسائى فى الكبرى [٢٣٤٩] واللفظ له ، وابن ماجة [٢٥٣٦] ، وحسّنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٢٠٥٥] ، وانظر الصحيحة [٣٦٩] .

= ولأبى داود من حديث سمرة مرفوعاً : « أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » (1) . وهذا محمول على من لم يأمن على دينه .

قوله : « ولكن جهاد ونية » قال الطيبى وغيره : هذا الاستدراك يقتضى مخالفة حكم مابعده لما قبله ، والمعنى : أن الهجرة التى هى مفارقة الوطن التى كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت ، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية ، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر ، والخروج فى طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن والنية فى جميع ذلك .

قوله : « وإذا استنفرتم فانفروا » قال النووى : يريد أن الخير الذى انقطع بانقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه . وقال الطيبى : قوله : « ولكن جهاد » معطوف على محل مدخول « لاهجرة » أى الهجرة من الوطن إما للفرار من الكفار أو إلى الجهاد أو إلى غير ذلك كطلب العلم ، فانقطعت الأولى وبقى الأخريان فاغتنموهما ولا تقاعدوا عنهما ، بل إذا استنفرتم فانفروا .

قلت : وليس الأمر فى انقطاع الهجرة من الفرار من الكفار على ما قال ، وقد تقدم تحرير ذلك . وقال ابن العربى : الهجرة هى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضاً فى عهد النبى ﷺ واستمرت بعده لمن خاف على نفسه ، والتى انقطعت أصلاً هى القصد إلى النبى ﷺ حيث كان .

وفى الحديث بشارة بأن مكة تبقى دار إسلام أبداً . وفيه وجوب تعيين الخروج فى الغزو على من عينه الإمام ، وأن الأعمال تعتبر بالنيات .

تكملة : قال ابن أبى جمرة ما محصله : إن هذا الحديث يمكن تنزيله على أحوال السالك لأنه أولاً يؤمر بهجرة مألوفاته حتى يحصل له الفتح ، فإذا لم يحصل له =

---

(1) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٦٤٥] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٣٠٤] .

= أمر بالجهاد وهو مجاهدة لنفس والشيطان مع النية الصالحة فى ذلك .

فتح البارى [٦/١٢٢،١٢٣] .

وقال النووى : قوله : « قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة : لاهجرة ولكن جهاد ونية » ، وفى الرواية لأخرى : « لاهجرة بعد الفتح » . قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : الهجرة من در الحرب إلى دار السلام باقية إلى يوم القيامة ، وتأوَّلوا هذا الحديث تأويلين :

أحدهما : لا هجرة بعد الفتح من مكة ؛ لأنها صارت دار إسلام ، فلا تتصور منها الهجرة .

والثانى : هو الأصح : أن معناه : أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التى يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة ، ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة ؛ لأن الإسلام توى وعزَّ بعد فتح مكة عزًا ظاهرًا بخلاف ماقبله .

قوله ﷺ : « ولكن جهاد ونية » معناه : أن تحصيل الخير بسبب الهجرة قد انقطع بفتح مكة ، ولكن حصِّلوه بالجهاد والنية الصالحة .

وفى هذا : الحث على نيِّ الخير مطلقاً ، وأنه يثاب على النية .

قوله ﷺ : « وإذا استنفرتم فانفروا » معناه : إذا طلبكم الإمام للخروج إلى الجهاد فاخرجوا ، وهذا دليل على أن الجهاد ليس فرض عين ، بل فرض كفاية إذا فعله من تحصل بهم الكفاية سقط الحرج عن الباقين ، وإن تركوه كلهم أثموا كلهم ، قال أصحابنا : الجهاد اليوم فرض كفاية ، إلا أن ينزل الكفار ببلد المسلمين فيتعينَّ عليهم الجهاد ، فإن لم يكن فى أهل ذلك البلد كفاية وجب على من يليهم تتميم الكفاية ، وأما فى زمن النبى ﷺ فالأصح عند أصحابنا أنه كان أيضاً فرض كفاية .

والثانى : أنه كان فرض عن ، واحتج القائلون بأنه كان فرض كفاية بأنه كان تغزو السرايا ، وفيها بعضهم دون بعض .

شرح النووى على مسلم [٧/١٣،١٤] . =

= وفى تفسير الخازن عند قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ يعنى بالشرك ، وقيل بالمقام فى دار الشرك ، وذلك لأن الله لـ يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبى ﷺ حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة ، بقوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » .

وفى تفسير الخازن أيضًا فى سورة الأنفال عند قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٥] ، اختلفوا فى قوله من بعد فقيل : من بعد صلح الحديبية ، وهى الهجرة الثانية . وقيل : من بعد نزول هذه الآية . وقيل : من بعد غزوة بدر ، ثم قال : والأصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها بعد الهجرة الأولى ، لأن الهجرة الأولى انقضت بعد فتح مكة لأنها صارت دار الإسلام بعد الفتح ، ويدل عليه قوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح » .

وقال الحسن : الهجرة غير منقطعة . ثم قال : ويجاب عن هذا بأن المراد من الهجرة المخصوصة ، الهجرة من مكة إلى المدينة ، فأما من كان من المؤمنين فى بلد يخاف على إظهار دينه من الكفار وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف فيه على إظهار دينه .

تفسير الخازن [٢-١٩٨] .

وقال القسطلانى : ما دام فى الدنيا دار الكفر فالهجرة منها واجبة ، والحكم يدور مع علته .

إرشاد السارى [٦/٣١٢] .

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

فإن قلت : هل يصح إسلام من أسلم فى بلد الكفر ولم يهاجر؟ قلت : جوابه كما قال النفراوى فى الفواكه الدوانى شرح الرسالة : لم يبين المصنف حكم من أسلم من الحربيين ، هل يجوز لهم البقاء فى دار الحرب أو يهاجرون منها إلى بلاد =

(١) رواه أبو داود [٩٧٤٢] وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٦١٢] : صحيح .

قول النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه »[1] .

= الإسلام ؟ وبينه غيره بقوله : ولو أسلم قوم كفار فإن كانوا حيث تنالهم أحكام الكفار وجب عليهم الارتحال منهم ، فإن لم يرتحلوا يكونوا عاصين لله ورسوله وإسلامهم صحيح .

الفواكه الدواني [١/٥٦٤] .

وكما لا يختلف اثنان أن المقيم ببلد الحرب اختياراً عاص لله ورسوله لا يختلفان أيضاً أن شهادته لا تجوز .

وفي المعيار : لا تجوز شهادة الدجن - وهو من يسكن ديار الكفر دون عذر - وقضاتهم لأنهم رضوا أن يكونوا تحت إيالة النصارى .

وفيه أيضا مثل المازري عن أحكام تأتي من صقلية من عند قاضيها أو شهود عدول هل يقبل ذلك أو لا ؟ .. ولا ندري إقامتهم هناك تحت أهل الكفر هل هي اضطرار أو اختيار ؟ فأجاب :

هذا المقيم ببلد الحرب إن كان اضطرارًا فلا شك أنه لا يقدح في عدالته وكذلك إن كان تأويله صحيحًا مثل إقامته ، لرجاء هداية أهل الحرب ، وأما لو أقام بحكم الجاهلية والإعراض عن التأويل اختيارًا فلا شك أنه يقدح في عدالته ، من ظهرت عدالته وشك في إقامته على أي وجه ، فالأصل عذره ، إلا أن تكون قرائن تشهد على أن إقامته كانت اختيارًا ، وتولية الكافر للقاضي باطلة ومع ذلك لا يقدح في تنفيذ أحكامه إذ حجر الناس بعضهم بعضاً واجب .

وقال القسطلاني : قال الماوردي إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار لإسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحلة لما يرجى من دخول غيره في الإسلام .

إرشاد الساري [٦/٢١٣] .

(١) أخرجه البخاري [١٠٤٨٤] عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما .

وهناك هجرة باقية لنا وهي المفارقة لأجل الجهاد في سبيل الله ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يُضيق فيه على المؤمنين لدرجة أنهم لا يستطيعون فيها أداء ما افترضه الله عليهم من العبادات كصلاة الجمعة والجماعة مثلاً ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان فراراً إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه المؤمن حرية أداء الفروض الدينية ، وكذلك الفرار بالدين من الفتن كل هذه هجرات إلى الله . والنية في هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط في طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس في هذا الزمان هو سعة العيش بل عليهم أن يبحثوا عن صحة الدين وإقامة شعائره [1] .

(١) قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .
أخرجه البخاري [١] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .

قصيدة موكب النور

نظمها الشيخ الإمام فى هجرة الرسول ﷺ

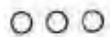
أريحى السماح والإيثار ... لك إرث يا طِيبةَ الأنوار
وجلال الجمال فيك عريقٌ ... لا تحرمنا ما فيه من أسرار
تجتلى عندك البصائر معنى ... فوق طوق العيون والأبصار
ومن الحسن ما يضيق به الحسن ... .. وعن فاقد الهوى متوارى
قد حضنت الهدى حنوناً فألقى ... فيك إشعاعه عصا السيار
هتف الحق فى سماء الفيافى ... أحَنَّ يا ليل فى ضميرك سارى
حضنتْ ركبه العنايةُ فانساب ... .. منيع الجناب كالإعصار
والذى حاطه الإله بعين ... كان فى غُنية عن الأستار
قل لطلابه طلبتم عزيزاً ... يتهادى فى قبضة الجبار
هل رأيتم فتى الفداء عليا ... كيف يختال قِبلة الأخطار
ويرى الموت قد أطلَّ عليه ... كاشر لناب جائع الأظفار
لا يبالى به ويسخر هُزءاً ... من مشيب قبل اسوداد العذار
كيف يرتاع والنبوة غذته ... .. حديد المهند البتار
يا وفاءَ الصِّدِّيق فى رحلة الحق ... سلامٌ عليك يا خيرَ جار
كنتَ درعاً إقامة ومسيراً ... ونصيراً يرجى لدى إعسار

عـلم اللّه ما انطـويت علـيـه ... فجـزاه إمامة الأبـرار
وكفاه على الجـزاء دليـلًا ... ثانِيَ اثنـين إذ هما فى الغـار
نغم الغـار بالنبى طـروباً ... والصّـدى عـازف على الأوتار
نغم الغارُ مرحباً بالهـدى المحض ... .. بلحن التكـبير والإكبـار
مرحباً بالحيـاة أرسلها اللّه ... .. لدنيـا تورطت فى العثـار
كم حسدنا حراء حين ترى الروح ... .. أمينـا يأتيك بالأنـوار
فحـراءٌ وثـورٌ صارا سـواء ... بهما أشـفع لأمة الأحجـار
عبـدونا ونحن أعبـدُ للّه ... .. من القائمـين بالأسـحار
تخِـذوا صمتنا عليهم دليـلًا ... فغـدونا لهم وقود النـار
قد تجنَّـوا جهلًا كما قد تجنّـوه ... .. على ابن مـريم والحـوارى
أُنزلا منزلاً كـريماً على اللّه ... .. منبعـاً على أذى الكفـار
فعلى مَدْخلى تقـام خيـوطٌ ... تتحـدَّى عـزائم الجـرار
هى أوهى البيـوت لكن سـقتْها ... عـزة الصلب قوة القهـار
أنا عـينٌ وأنتما النـور فيها ... وهو فيها كالهـدب بالأشـفار
وسـيأتى الحمام يَفـرخ أمناً ... وسـلاماً يكون خيرَ شـعار
لا تراعى أسـماء هيَّا إلينـا ... وأعينى على سـماحة قارى
واخطـرى كاليقين يهزأ بلشـك ... حيـاةً من الدجى فى خيـار
خاتمِ الرُّسْـلِ لا أطيـق وداعًا ... وعن المجتـلى يعزُّ اضـطبارى
غير أنى أرى المدينـة ظمْأى ... فاروها طالعـاً يبـلُّ لوارى

أنا آثرتهـا على كفـاء ... وجـزاء الإيثـار بالإيثـار
أطرق الغـارُ خاشعاً وسرى الهادى ... .. حيـاة تدبُّ بين القفـار
فمشى الخـير حيث يمشى وولىَّ ... كل عـدْم وطاح كل افتقـار
وأتى أم معبـد فتـمامتْ ... - وهى من فـكرة القِرى فى دوار
ويحهـا .. ويحهـا وويح كـريم ... حـين تؤْذِه صـدمةُ الإعسـار
قدَّمت شـاتها بضرع بخيـل ... فإذا مسّـه نال كالمـدرار
وإذا اللّهُ كان عـونَ نبى ... فازجـر العقلَ عن حدود اقتـدار



حرقت قلبها المدينـة شـوقاً ... عبقـريًّا لطلعة المختـار
أسـرعى ناقُ نوق رحلك نـور ... ترتجيـه مواكب الأنصـار
رحمـة للحبيب يرجو حبيبـاً ... فيرى الدهـر فى أقلِّ انتظـار
حشـدوا حشدهم فلما تجـلَّى ... كبر الحشـد من جلال الوقـار
مرحبـاً مرحبـاً بأكـرم داع ... وعلى الرَّحب يا جليـل المـزار
أنتَ بشرى عيسى ودعـوة إبراهيم ... .. جاءت سـليلة الأطهـار
أنت يا غـرةَ الوجود خيـارٌ ... من خيـار مقطَّرٌ من خيـار
فاقض فيما لنـا بما أنت قاضٍ ... ذاك حـق لأنصـار فى كل دار
جلجـل الحـقُ قـوة وحجاجاً ... واضـحاً نهجُه وضـوع النهار
فذها الشـرك ما دهاهُ وخـرّت ... جبهـةُ الغىِّ فى سحيق القـرار



ذكّرينا يا هجرة الحقّ ما قل ... وكيف استهلَّ خطو السُّفار
واملئى الناس عزّةً وطموحاً ... وأرينا روائعَ الآثار
إنما أنت عبرة وتأس ... صيرّوها ضرباً من الأخبار
أيقظى الشرق من سبات عميق ... واحمليه إلى مدار الـدرار
فيه من محكم الكتاب ملاذٌ ... فاقدحى يا رؤوسُ فالزندُ وار
علّميه الفداء حزماً وعزماً ... فجنى النحل من أذى المشتار
علّميه أن الحياة صراع ... من سها فيه ذل فى المضمار
علميه أن القويَّ ظلوم ... كم يهادى كبارهم بالصغار
فقوى على الضلال مقيم ... وقطيع من الضعاف يجارى
أيها المسلمونَ فى أمم الأرض ... أيرضى الإسلام ما هو جار ؟
كيف باللّه تستقرُّ نفوس ... والأشقاء بيننا فى اشتجار
أنقول الإسلامُ ظلماً وجوراً ... وفلسطين لم تعد من ديار
« إننا عائدون » نصرخ فيا ... صرخةً تستغيث معنى الشُّعار
دولةُ العلم والسياسات والحرب ... .. ودُنيا الهوى والاستعمار
كلُّ دنيا تُبنى على غير دين ... فبناءٌ على شفير هار(*)

(*) من قصيدة موكب النور للشيخ الإمام .

فهرس الموضوعات